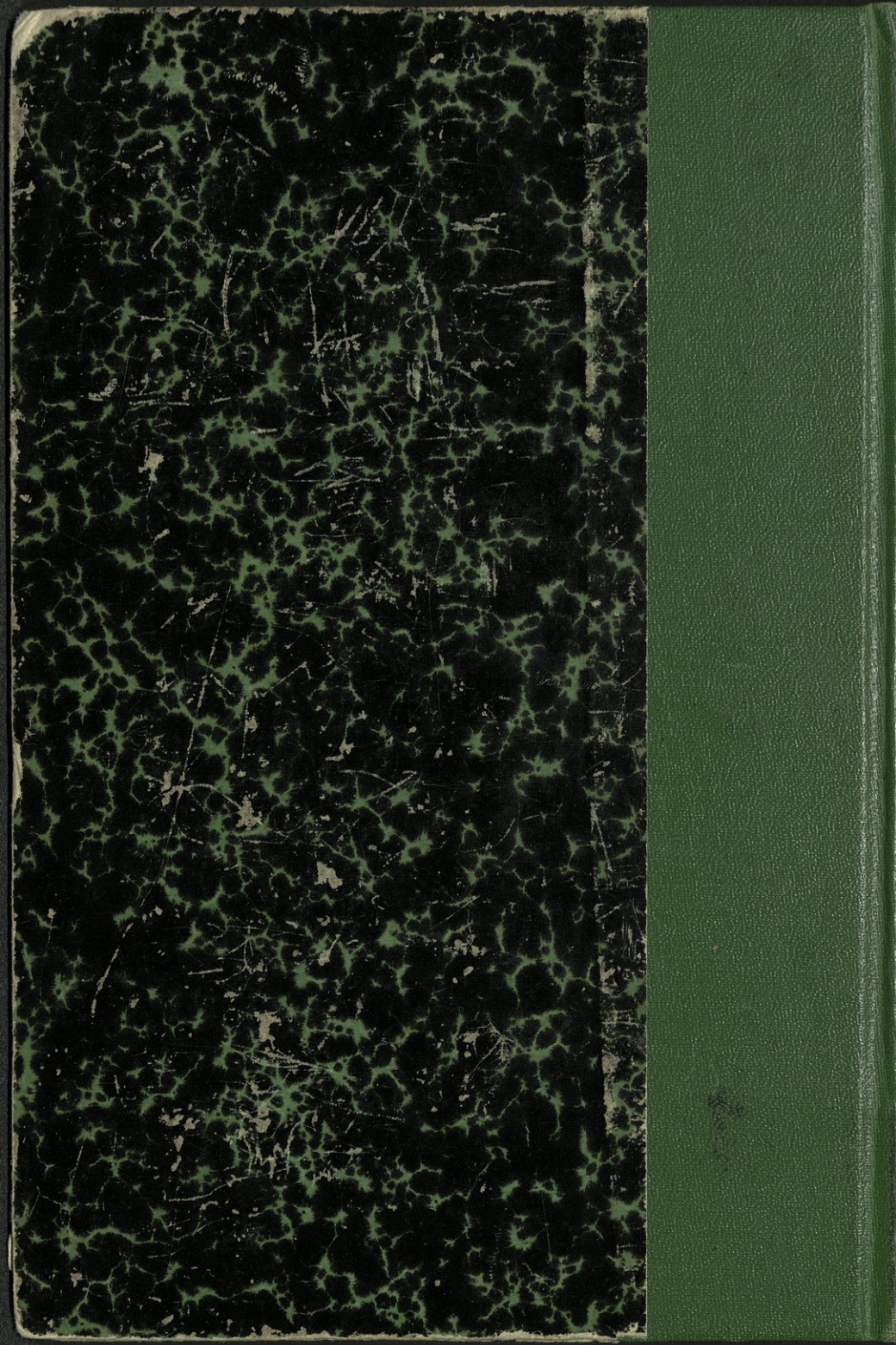
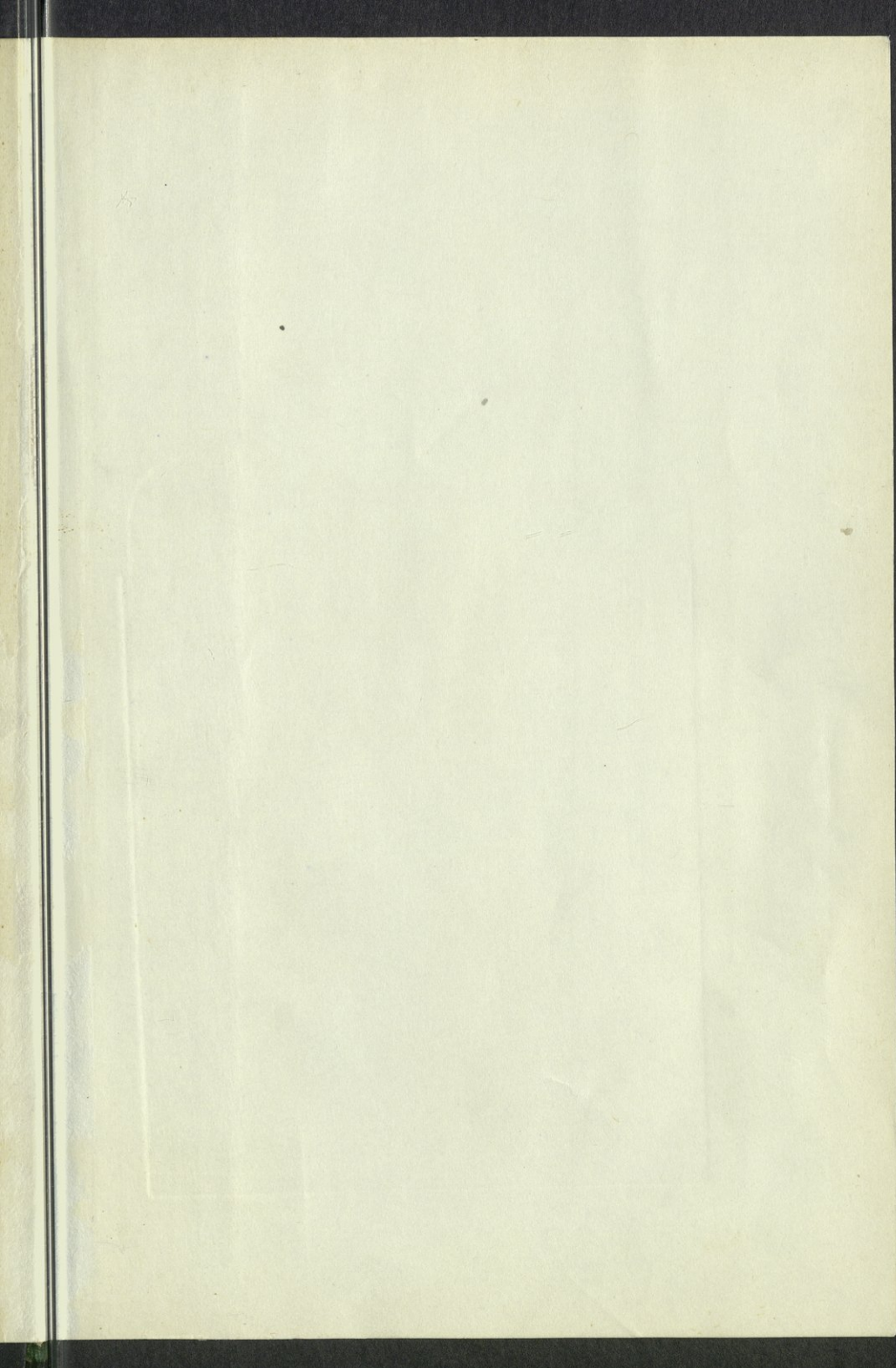




A. U. B. LIBRARY

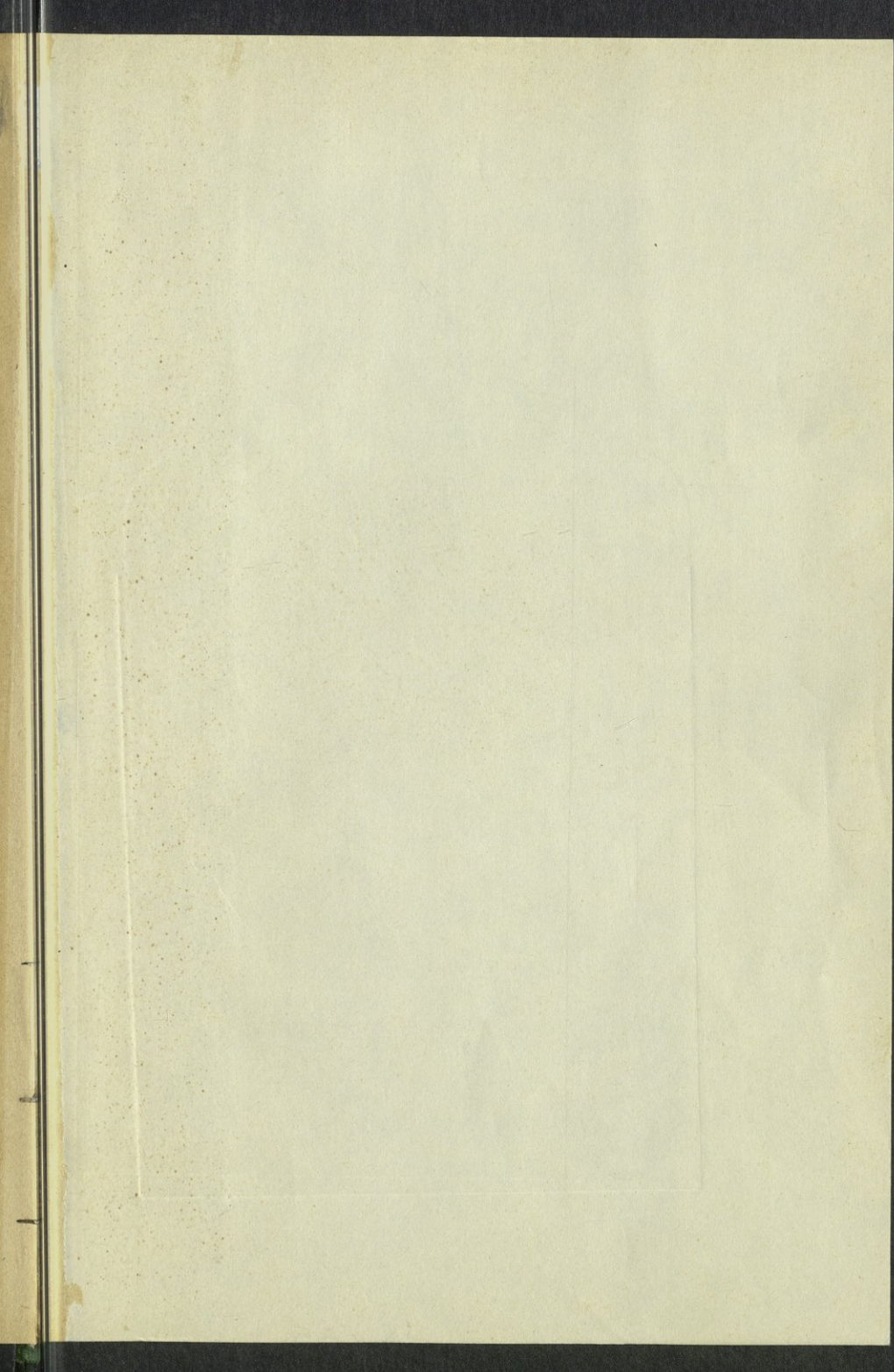


3030

1880

1880

1880



892.78
I 224 Y 99
يوسف
يوسف

ابن الفارسي

مقدمات في التصوف



دراسة - شعر مختار

طبعة ثالثة منقحة

المطبعة الكاثوليكية
بيروت

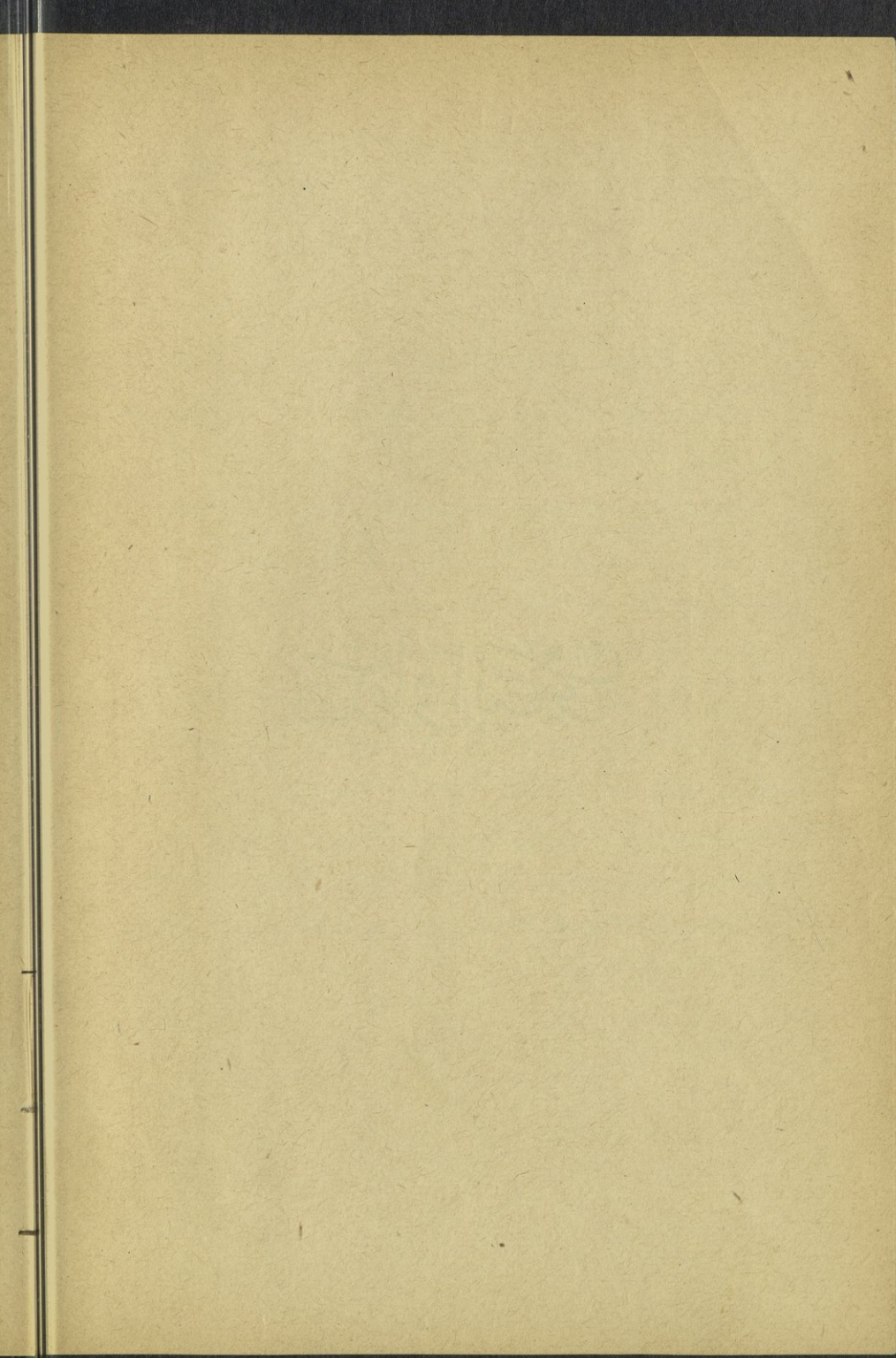
هذه دراسة في التصوف وابن الفارض ، تلبيها دراسات في
فلسفة العرب ومفكرهم ، وقد تلبيها أخرى فحين أمروا في الفكر
العربي وتأثروا به . هدفنا من ذلك اجلاء تراث ، ونشر فكر ، ورسالته
من . وفانا الله من الظلم بالباطل ، والتزيغ مع الزهوى .

حين يقدم باحث على درس التصوف لا بد له من القيام بأسرين :
الاول : هو عرض امين لما رواه التاريخ ، اي لما رواه الصوفيون
عن انفسهم ، او رواه عنهم الناس .

والثاني : هو الحكم على هذه الرواية من حيث امكانها ، ووقوعها .
وانا في دراستنا هذه لنشأة التصوف الاسلامي وتطوره ، ولسيرة
ابن الفارض ومواجهه ، قد توخينا جهدنا الامانة ، فنظرنا الى التاريخ
بعين من وضعه ، وبلغته كتبناه .

على انا لم نقم - الا لاما - بالحكم على الرواية ، بالفصل بين
التاريخ والاسطورة ، بين الحقيقة والوهم . ذاك لانا نعتقد ان مثل هذا
الحكم يفترض حلاً للمشكلة الصوفية من اساسها ، من حيث ان
التصوف سبيل الى الله سوي ، ومن حيث الشروط الجوهرية لاستواء .
هذا السبيل ، فيتيسر حينئذ الحكم على الظواهر والفروع . وانا سنحاول
حلاً لهذه المشكلة في غير هذا المكان ، في دراسة جامعة لكبرى
معضلات الفكر العربي .

مَقَاتِلُ فِي النِّصْبِ



ما مصادر الصوفية؟

كل بيئة دينية توفر في نفوس ابنائها الاخلاص والتفكير قابلة لظهور الروح الصوفية . فالتصوف اذاً ليس محصوراً على عرق ، او لغة ، او امة ، ان هو الا مظهر روحي بشري لا تحده مثل هذه الحدود المادية . . .

هو القرآن يردد المسلم تلاوته ، ويتأمل فيه ، ويقوم بفرائضه ، قد كان في اصل التصوف وعمل على غوّه .

اغرق التصوف الاسلامي في مطالعة القرآن ، وجدّ في قراءة كتاب يؤمن بوحيه ، فكان له منه اظهر خصائصه : كان الذكر ، وكانت مجالس تُتلى فيها آيات القرآن ، او تأملات نثرية وشعرية مماثلة .

ثم تطورت مجالس الذكر هذه ، فكان السماع . . . وكان الوجد . . . والرقص وغزيق الثياب .

ماسينيون

لا ريب في ان الشعور الصوفي « غير مقصور على عرق ، او لغة ، او امة » (ماسينيون) . . .

وكثيرة آيات القرآن التي تثير في النفس خوف الله وحسابه ، اساس كل زهد صحيح . . .

على ان القرآن اجمالاً لا يبدو كافياً لاثارة الشعور الروحي الداخلي . . . وانه لما يسترعي الانتباه ان اقدم الفرق الاسلامية ، كالخوانساري والامامية ، قاومت التصوف ، كما قاومه حديثاً الوهابيون بمجددو الاسلام الاول . ليس هذا الاتفاق دليلاً على ان التصوف دخيل في الاسلام . . . هذا التصوف الذي نشأ في سوريا ومصر ، مهد الرهبانية ووظنها المصطفى ؟ . . .

ان التصوف الاسلامي اخذ عن التصوف المسيحي اموراً كثيرة . . . اخذ

التأمل الفردي او في جماعة ، والسهر الطويل ، وتلاوة الكتاب ، وطلبات الذكر . . . وقال بضرورة شيخ مرشد . . . (١)
 ثم منذ القرن الثاني الهجري ، . . . حدث اتصال بين البيئات الفكرية الاسلامية والبيئات الارامية من مسيحية ويهودية ، فاطلع المسلمون على الفلسفة اليونانية . . . واستقى الزهد الصوفي من الافلاطونية المستحدثة . . .
 ثم توغل الصوف ، بعد ذاك ، في آسيا الوسطى . . . فقلّد متصوفي (Yoghis) الهند في بعض ما يمارسون ، سيما في قولهم بالفناء ، بتلاشي الذات الفردية للاندماج في الله الباقي .

لامنس

ليس القرآن مصدر التصوف ، بل مصادره غريبة . . . ان فشتت عنها لن تجدها الا في النصرانية ، او في الفلسفة اليونانية ، او في ديانات الهند والفرس وفي شيء من اليهودية . وفي الواقع كل هذه العناصر عملت على تكوين التصوف الاسلامي .

كارا دي ثو

التصوف الاسلامي هو في حقيقته ظل من ظلال المسيحية ، هو هرب مطلق من الدنيا ، ومن الجاه ، ومن المال . . .
 الصوفية جنوا على المسلمين ابشع جناية حين حبسوا اليهم الزهد ، وبغضوا اليهم المال . الصوفية هم الذين جعلوا المسلمين اخر الشعوب ، وهم الذين قضوا عليهم بالاستعباد ، وهم الذين اوردوهم موارد الذل والضم والهوان .
 ان اول صوفي تعمق في البحث عن عيوب النفس . . . هو الخارث المحاسبي ، وهذا الرجل الذي كان قدوة لجميع الصوفية كان من اعداء المال . . . وكان رجلاً مسيحي التربة .

الدكتور زكي مبارك

(١) قال ابن الجوزي : لبس ابليس على جماعة من المتصوفة ، فنهزم من اعترل في جبل كالهبان ، بيت وحده ، ويصبح وحده ، ففانته الجمعة والجماعة ومخالطة اهل العلم .

معالم صوفية

الحسن البصري (٣١ - ١١٠ هـ) = (٦٤١ - ٧٢٨) :

احتقر حسن العالم ، وخاف الحساب ، فاذا به زاهد محزون ، قضى ،
على ما يروون ، اربعين سنة لم يضحك فيها مرة . ترك مواعظ هي من
ابلق خطب الاسلام دعا فيها الى طرح الزياء ، وتنقية القلب وخوف الله
وذكره . قال المسكي : « كان الحسن اول من اُنهج سبيل هذا العلم ،
وفتح الاسنة به ، ونطق بعمانيه ، واطهر انواره ، وكشف قناعه . »
من اقواله :

- طول الحزن في الدنيا تليق العمل الصالح .
- ما لهم اكنوا الكبر في قلوبهم ، واطهروا التواضع في لباسهم ؟
والله لاحدهم اشد عجباً بكسائه - كساء الصوف - من صاحب
المطرف بطرفه ! .
- ابن آدم ، انك تموت وحدك ، وتدخل التبر وحدك ، وتبعث
وحدك ، وتحاسب وحدك . ابن آدم ، انت المعني واياك يُراد .
- الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .
- النية ابلغ من العمل .
- حادثوا هذه القلوب فانها سريعة الدثور .
- اذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت نعيمه ولذته في
ذكري . فاذا جعلت نعيمه في ذكري ، عشقني وعشقتة ، فاذا عشقني
وعشقتة رفعت الحجاب بيني وبينه .

الحارث المحاسبي (١٦٥ - ٢٤٣ هـ) = (٧٨١ - ٨٥٧) :

ولد في البصرة ، وعاش في بغداد ، ولقب بالحاسبي لحاسبة نفسه على آثامها .

في كتابه « الرعاية لحقوق الله والقيام بها » يدعو الى التوبة ، والزهد ، والاخلاص ، ومقاومة العُجب والرياء ، ومحاسبة النفس ، وتفهيم كلام الله .

كتابه « الوصايا » اعترف سيوحي للغزالي منقذه : رأى انقسام المسلمين الى ٧٢ فرقة ، وسبب انقسامهم في اتباع الهوى ، ودواءه في الفضيلة ، والفضيلة عند الصوفية ، فسار على طريقتهم : « وجدت فيهم دلائل التقوى والورع ، واشار الآخرة على الدنيا ، ووجدت ارشادهم ووصاياهم موافقة لائمة الهدى ، مجتمعين على نصيح الامة ، لا يرخصون لاحد في معصية ، ولا يقنطون امراً من رحمة ، يأمرون بالصبر على البأساء والضراء ، والرضى بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يجيبون الى الله العباد يذكرونهم اياديه واحسانه . »

ومن اقواله :

— ايها المقتون، متى زعمت ان جمع المال الحلال اعلى وافضل من تركه فقد ازريت بحمد والمرسلين ، وزعمت ان محمداً لم ينصح الامة اذ نهاهم عن جمع المال ، وقد علم ان جمعه خير لهم . وما ينفعك الاحتجاج بالصحابة ؟ ود ابن عوف يوم القيامة ان لم يوث من الدنيا الا قوتاً .

— ان اول المحبة للطاعات منتزعة من حب السيد تعالى اذ كان هو المبتدئ بها ، وذلك انه عرفهم نفسه ودلهم على طاعته ، وتجب اليهم على غناه عنهم ، فجعل المحبة له ودائع في قلوب محبيه .

ذو النون المصري (١٨٠ - ٢٤٥ هـ) = (٧٩٦ - ٨٥٩) :

تكلم كثيراً عن الحب ، ورتب « الاحوال والمقامات » الصوفية ،
وذلك بلغة كثيرة التشابيه والرموز .

سمع مرة قولاً ينشد :

صغير هواك عذبي فكيف به اذا احتنكا
وانت جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا
اما ترثي لمكتسب اذا ضحك الخلي بكى

وكان يبيحه الساع ، فقام ، وسقط على وجهه ، والدم يقطر منه .
شبهه النقيه المالكى المصري عبدالله بن الحاكم (٢١٤ هـ = ٨٢٩)
لتعاليمه الصوفية في الجماهير ، ووافقه السلطة في آخر حياته وارسلته الى
بغداد حيث سجن مدة الى ان اطلقه الخليفة .

بعض اقواله :

- الصوفية قوم آثروا الله على كل شيء فأثرهم على كل شيء .
- ان الله عبادةً نصبوا اشجار الخطايا نصب اعينهم ، وسقوها بماء
التوبة ، فاثرت ندماً وحرناً ، فجنوا من غير جنون ، وتبلدوا من غير
عي ولا بكم ، وانهم لهم البلغاء والفصحاء العارفون بالله وبرسوله . ثم
شربوا بكاس الصفا ، فورثوا الصبر على طول البلاء . ثم تولت قلوبهم
في الملاكوت ، وجالت فكرهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا
تحت رواق الندم ، وقرؤوا صحيفة الخطايا ، فاورثوا انفسهم الجزع حتى
وصلوا الى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ،
واستلنوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحب النجاة وعروة السلامة ،
وسرحت ارواحهم في العلى حتى اناطوا في رياض النعيم . وخاضوا في
بحر الحياة ، وردموا خنادق الجزع ، وعبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا

بفناء العلم ، واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا في سفينة العطية ،
واقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ،
ومعدن الغر والكرامة .

— تَمَيَّتُ ان اراك ، فلما رأيتك غلب دهشة السرور فلم املك
البكاء .

— بينما اسير في انطاكية اذ انا تجارية كأنها مجنونة ، وعليها جبة
صوف ، فسلمت عليها ، فردت علي السلام ثم قالت : الست ذا النون
المصري ؟ فقلت عافاك الله كيف عرفتني ؟ فقالت عرفتك بعرفة حب
الحبيب .

— بينما انا مار في شوارع مصر ، اذ رأيت جارية مسفرة بغير خمار ،
فقلت لها : يا جارية ! اما تستحين ان تمشي بغير خمار ؟ فقالت : يا ذا
النون ، ما يصنع الخمار بوجه قد علاه الاصفرار ؟ فقلت ومن اي شي
علاه الاصفرار ؟ قالت : من محبته . قلت : يا جارية ، عساك تناولت
شيئاً من شراب القوم ! فقالت : اسكت يا بطل ! شربت بكاس
وده وغت مسرودة ، فاصبحت بحب مولاي محمودة .

•

ابو يزيد البسطامي († ٢٦١ هـ = ٨٧٤)

متكشف متطرف في تقشفه ، وزاهد مثال الزاهدين .

نسب الى نفسه معراجاً كعراج النبي فنفي مرات .

له اقوال يتصف فيها بصفات الله .

بقي له نتف مبعثرة منها :

— كنت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي ، وخمس سنين مرآة قلبي ،

وسنة انظر فيما بينها ، فاذا في وسطي زنار ظاهر فعملت في قطعه اثنتي

عشرة سنة ، نظرت فاذا في باطني زنار فعملت في قطعه خمس سنين
انظر كيف اقطع فكشف لي ذلك ، فنظرت الى الخلق فرأيتهم موتى ،
فكبرت عليهم اربع تكبيرات .

— ان الله سبحانه وتعالى كفاني مؤونة النساء حتى لا ابالي استقبلتني
امرأة او حائط .

— احببت الله حتى ابغضت نفسي ، وابغضت نفسي حتى احببت طاعة الله .

— طلبت قلبي ليلاً من الليالي فلم اجد ، فلما كان في السحر سمعت
قائلاً يقول : يا ابا يزيد ، هوذا تطلب غيرنا !

— من قتلته محبته فديته رؤيته ، ومن قتلته عشقه فديته منادته .

— الجنة هو الحجاب الاكبر ، لان اهل الجنة سكنوا الى الجنة ،

وكل من سكن الى الجنة سكن الى سواء فهو محبوب .

ان لله خواصاً من عباده ، لو حبسهم في الجنة من رؤيته ساعة

استغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث اهل النار بالخروج من النار .

— ان آدم باع حضرة ربه بلقمة .

— تالله ان لوائي اعظم من لواء محمد ، لوائي هو من نور تحته الجن

والانس كلهم مع النبيين .

— لئن تراني مرة خير لك من ان ترى ربك الف مرة .

— دخل ابو يزيد مدينة فتبعه منها خلق كثير ، فالتفت اليهم فقال :

اني انا الله ، لا اله الا انا ، فاعبدوني ! فقالوا : جن ابو يزيد ! فتركه .

— اراد موسى ان يرى الله تعالى ، وانا ما اردت ان ارى الله

تعالى ، هو اراد ان يراني .

— طاعتك لي يا رب اعظم من طاعتي لك .

— سبحانه ما اعظم شأنه !

الحسين بن منصور الطروج (٢٤٤هـ - ٣٠٩هـ) = (٩٢١ - ٨٥٨هـ) :

ذروة المتصوفين ، وشهيد الاتحاد بالله .

بعد خلوة في بغداد امتدت الى سنة ٢٦٠ هـ ، خرج الى الدعوة يعظ الزهد والتصوف في خراسان والاهواز والهند وتركستان . وعاد الى بغداد سنة ٢٩٦ هـ فذاع صيته ، وكثر تابعوه ، وانتشرت اقواله الحلولية من مثل « انا الحق » ، فاوقفته السلطة العباسية ، وسجنته ، وحاكمته ، ثم جلدته وصلبته ، ثم قطعت رأسه واحرق جسده . قال ابراهيم بن فاثك : « لما اتي بالحسين بن المنصور ليصلب رأى الحشبة والمسامير فضحك كثيراً حتى دمعت عيناه ، ثم ... ذكر اشياء لم احفظها ، وكان مما حفظته : اللهم ... بحق قدمك على حديثي ... ان ترزقني شكر هذه النعمة التي انعمت بها علي ، حيث غيت اغياري عما كشفت لي من مطالع وجهك ، وحرمت على غيري ما ابحت لي من النظر في مكنونات سرّك ، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك ، وتقرباً اليك ، فاغفر لهم ، فانك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت . فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد . ثم سكنت وناجى سرّاً . فتقدم ابو الحارث السيف فاطمه لظمة هشم انفه ، وسال الدم على شبيهه . . . وكادت الفتنة تهب ففعل اصحاب الحرس ما فعلوا . »

له مقاطع شعرية عديدة اليك بعضها :

- ١ -

اقتلونني يا ثقاتي	ان في قتلي حياتي
وماتي في حياتي	وحياي في مماتي
ان عندي محو ذاتي	من اجل المكرمات

وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات
فاقتلوني واحرقوني بعظامي الفانيات
ثم مروا برفاتي ، في القبور الدارسات ،
تجدوا سر حبيبي في طوايا الباقيات !

- ٢ -

والله ما طلعت شمس ولا غربت الا وحبك مقرون بانفاسي
ولا خلوت الى قوم احدهم الا وانت حديثي بين جلالي
ولا ذكرتك محزوناً ولا فرحاً الا وانت بقلبي بين وسواسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش الا رأيت خيلاً منك في الكاس
ولو قدرت على الاتيان جئتكم سعيًا على الوجه او مشيًا على الراس !

- ٣ -

كانت قلبي اهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين اهوائي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلاً بحبك ، يا ديني ودنياي

الحب ، ما دام مكتوماً ، على خطر وغاية الأمان ان تدنو من الحذر
واطيب الحب ما نتم الحديث به كالنار لا تأتي نفعاً وهي في الحجير !

- ٤ -

تفكرت في الاديان جدّ تحقق فالفيتها اصلاً له شعباً جمّاً^(١)

الا أبلغ احبائي باني ركبت البحر وانكسر السفينة
على دين الصليب يكون موتي ولا البطحا اريد ولا المدينه !

(١) ويروى عن الخلاص قوله : « الاديان كلها لله عزّ وجلّ ، شغل بكل دين طائفة ... الاديان هي القاب مختلفة واسام متغايرة ، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف . »

عجبت منك ومني يا منية المتمني
ادنيّتي منك حتى ظننت انك اني
وغبت في الوجد حتى افيتني بك عني

واي الارض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك في السماء
تراهم ينظرون اليك جهرا وهم لا يبصرون من الغاء

يا بديع الدل والغنج لك سلطان على المهب
ان بيتاً انت ساكنه غير محتاج الى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج ا

قد تصبرت وهل يصبر قلبي عن فؤادي
مازجت روحك روحي في دنو وبعاد
فانا انت كما انك اني ومرادي

مزجت روحك في روحي كما تخرج الحمرة بالماء الزلال
فاذا مسك شي، مستني فاذا انت انا في كل حال

انا من اهوى ومن اهوى انا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرتني ابصرته واذا ابصرته ابصرتنا

مثالك في عيني، وذكرك في في ومشواك في قلبي فاين تعيب؟

التصوف الاسلامي

التصوف الاسلامي اعراض عن الارض في نشأته ، ومناجاة روحية
 تلى في اوجه ، وشعور تحجر او ضل في عصوره المتأخرة ، وكاننا اذ نريك
 هذا التصوف في لمحة تاريخية ، لا تتعدى رسم الحدود بين هذه المراحل
 الثلاث ، واضعين امام عينيك معالم تهتدي بها في سيرك المشعب الشاق .

١ - النشأة

قال ابن خلدون : « اصل الصوفية العكوف على العبادة ، والانقطاع
 الى الله ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد في ما يقبل
 عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخاوة للعبادة .
 وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف . »

هو الدين الجديد بث في النفوس خوف القدير ، ورهبة العقاب ،
 ورغب الناس في عبادة الرحمن وهناء النعيم ، ودعا الخلق الى تسليح
 ربهم ليل نهار ، فاذا نفوس تخاف عدل الله الصارم ، وترهد في هذا
 العالم الفاني ، فتصرف الى نفسها تحاسبها على اثمها وتنقيها من عيوبها ،
 وتصرف الى ربها تناجيه في سكون الليالي ، وتتفهم وحيه في هدوء
 الوحدة ، حتى اذا ارضت نفسها من الصلاح ، وربها من التسليح ، انصرفت
 الى غيرها تحاجهم في حبهم للدنيا ، وتذكركم بنواهي الله ، وتدعوهم الى
 ما دعاها اليه ، شارحة لهم آيات الوحي ، مرددة على مسامعهم احاديث
 الاخرة ، ساكبة امامهم دموع التوبة . هذه كانت عبادة السلف في
 القرنين الاول والثاني ، شأن حسن البصري والحرث المحاسبي وغيرهما ،
 ينفردون ويصلون ويتأملون فيدعوهم الناس زهاداً وعباداً ونساکاً ، او
 هم يشرحون ويعظون ويبيكون فيدعونهم قراء وقصاصاً وبكائين .

وهو ظمأ القلب البشري قلما رواه مخلوق.

يحيي الانسان هذا العالم ابناً من بني البشر ، فيه الى السعادة حزين الليل الى النور ، وله في اللذة نهم الغناء الى الرقص . ويسير في هذا العالم ، تسحر الالوان عينيه ، وقوج لبسمته الدنيا ، فيتيه كاللشوان ، ويرقص ، ويعربد . ثم يطغى عليه الغرور ، فيسط ذراعيه في الفضاء ليضم الدنيا الى صدره ، شأنه شأن الطفل الذي يد يده ليطال القمر . ويتأدى به الوهم فيخال الدنيا بين ذراعيه ، ويخاله ملك الدنيا ، فيبلغ ثملته اقصاد ، ويغيب في حلم رحب ، تضيق به الدنيا الرحبة ، ويضيق به خياله ، وتضيق به قواه .

ولكن ما اوهى احلام الدنيا ، وما اقسى يقظة المخدوع . هي خيبة او ملل ، واذا احلام هذا المقتون تراب منشور يتدري شجوباً في لونه ، ومرارة على شقيقه ، واذا هو دهش مذعور كضائع في خربة ، لا يرى حوله سوى اشلاء ماضيه ، وبقايا اماله ، واذا به يائس ناظم ، يلعن التراب الذي جبل منه ، والارض التي جبلت به ، ويضج قلبه بالحقد والبغضاء ضجة كل قلب مخدوع .

لقد غرته الدنيا ، وصرفته عن عالم الحق ، فانقاد لها جهلاً ، واحبها اثماً . ألا طالما انذرته صوت داخلي بسوء مصيره ، ودعاه الله الى سماع نجبواه ، وورود مناهله ، فاعرض ولم يعر . اما الان وقد تبددت الاوهام ، وتمزقت الستور ، فسيعود هذا المعرور من سفره الارضي العقيم ، ويعد سفرًا جديدًا الى عالم جديد .

انه سينصرف الى قلبه فيعريه من كل ميل ، وكل ذكرى ، وكل اثر ، ويجرده من حباثل الشروات الارضية ، فينتزعها منه انتزاعاً ، ويستأصلها استئصالاً ، وان آلمه الانتزاع ، وادماه الاستئصال . . . اما عيناه فلن تنهلا بعدُ النور الخداع ، بل سيفغضهما عن هذا العالم الخارجي ،

ويعود بهما الى قلبه يراقبه ويحاسبه ، يشذبه ويصفيه ، الى ان يعود كما خرج من يد الله ، ليس فيه غير الشوق الى وجهه .
وكان عناء وكان دعاء ، واذا انسان جديد يستيقظ فيه ، وروح جديدة تدب في عروقه .

الا انظره ! كل اشواقه الارضية قد ماتت . لقد زهد في المال ، وآثر الفقر والصوم والجوع ، وتوكل على ربه في تدبير شأنه . وقد زهد في اللباس ، فطرح الزينة ، وفضل الخشن ، واكتفى الصوف رداءً عادياً . وقد زهد في الناس ، فاعتزل الناس ، لا يرجو منهم عوناً ، ولا فيهم عزاء ، وربما زهد في الزوج والولد ، وآثر التبتل^(١) ليتفرغ الى نفسه والى ربه . قد يطلب منه هذا التبتل جهداً ، وقد يجره الجهد الى التشويش والكآبة ، ولكنه يفضل جهداً ينقيه ، وكآبة يستقر عليها . . .
حتى اذا تعذر الاستقرار خرج سائحاً تائباً ، يقاسي حر العناصر وبردها ، ويقاسي جوع السفر وعناءه ، ويجهد هذا الجسد الى ان يعريه من منى الدنيا ويعده للسفر الى الله ، منية القلوب والاجساد .



هو الدين بعث الخوف في القلوب ، او الدنيا لم تملأ فراغها ، فانصرفت الى ربه عابدة زاهدة ، ترجو منه غفراناً واليه بلوغاً .
تلك كانت اول خطوة خطاها الصوفي نحو كماله ، فيها من الخيبة والرهبة ، وفيها من الزهد والتوبة ، وفيها صبوة بعيدة الى الجلال الباقي ، الى عناق الالهة في ذروة الفناء .

(١) التبتل دخيل مسيحي . روى ابن الجوزي الحديث التالي : دخل على النبي رجل يقال له عكاف ، فقال له النبي : يا عكاف ، هل لك زوجة ؟ قال : لا . قال : ولا جارية ؟ قال : لا . قال : وانت موسى بنخير ؟ قال : وانا موسى . قال : انت من اخوان الشياطين ، لو كنت من النصارى كنت من رهبانهم . ان سنقنا النكاح .

ولكن اين الله ، وكيف السبيل اليه ؟

ان اهل الشرع قد وضعوه بعيداً ، وراء الغيوم الكثيفة ، و وراء النجوم ، رباً لا يداني وروحاً لا يحس . اما الطريق اليه فقد حددوها بشرائع ، ونظموها بقوانين ، كأن النفس لم تتحرر من قيودها الارضية الا لتقع في قيود جديدة .

لا ! ان الصوفي لن يتقيد ثانية بقيود البشر ، ولن يرضى الا عن قيد اخلق يضمه الى ربه في وحدة الوجود الشامل ، وعن قيد الحب يجمعها معاً في دهشة القلب الريان .

ولهذا لم يعد الصوفي يفتش عن الله في السماء ، او يسير اليه بالشرائع والقوانين ، بل عاد الى قلبه يضم فيه الحب ، ليرى على نوره وجه ربه فيه .

لم يعد قرآنه وضوءاً وتشريعاً ، او ترغيباً بثمار الجلد وحوره ، بل أصبح حديث ربه اليه ، وكلامه معه ، يردده بلسانه وكأن الله يناجيه .

تأمله جالساً في خلوة ، وقد غابت الدنيا عن قلبه وعينه ، يفتح كتابه ويقول : « يا ايها الذين آمنوا ، اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة واصيلاً . » (٣٣ : ٤٠ - ٤١) . ثم انظره وقد طوى كتابه ، وغض بصره ، وسوى جلوسه ، وبدأ يذكر ويسبح . هو اسم الله او بعض صفاته ، يردده لسانه ما امهله الكلل ، فتسوج شفتاه موجات كلماته ، وتحقق انفاسه خفقات الهائمين ، ويتأيل جسده ورأسه على همس صوته وانفاسه ، فكأنه معزف استوت اوتاره ، وتلام نغمه ، وكأنه لم يأت الوجود الا ليغني اغنية الحب لباري الوجود . . . يا لطيف . . . يا رحيم . . . سبحان الله . . . لا اله الا الله . . . لا اله

الا هو ... يردد احدى هذه الكلمات عشرات المرات ، ومئات المرات ،
ويقف اخيراً على اسم الله يردده وحده ، ويتمايل برأسه الى اليمين ، ثم
الى اليسار ، ثم نحو قلبه : الله ، الله ، الله ... الله ، الله ، الله ...
لسانه يتكلم ، ورأسه يتمايل ، وقلبه يتفهم ، وكله بالله مخمور :

مثالك في عيني ، وذكرك في في ، ومشاك في قلبي ، فأين تعيب ؟
وقد لا يكون هذا الصوفي وحده ، بل في صجبة من امثاله او
تابعيه ، فيتخذ « الذكر » شكل جوق ، او تارة قلوب خفاقة ، ونغماته
اصوات تتراجع وتمتد ، وتستطيل ، اما لحنه فواحد هو حب الله ، والبسكرة
بالله : يا لطيف ، يا لطيف ، يا لطيف ...

وقد قل هذه القلوب عبارات القرآن ، فتستريح لنفسها عبارات
الغزل ، تنتقل بها من الحب البشري الى الحب الالهي ، وتستريح لاصواتها
القناء بهذا الشعر الغزلي ، فيعلو في نشوة الذكر صوت رخم بعيد المدى :
انا من أهوى ومن أهوى انا نحن روحان حللنا بدنا

ويعود الصوت متواجاً ، متشاقلاً ، ولهان ، — وقد ترجعه الضلوع
اصداء حب قديم — فاذا الاعطاف تترنج ثم تضطرب ، واذا الايدي
تتهادى ثم تصفق ، واذا الاوصال اوراق صفعها الريح ، واذا الاجساد
تنهض مائسة متخطرة ، ثم تسرع هازجة راقصة ، ثم تدور في الحلقة
ذهاباً واياباً ، وتعمر الجميع موجة من الطرب طالما جنى عليها الزهد ،
ويستسلم الجميع لثورة من المادة طالما ذلها الروح ، ويبلغ « الوجد »
اقصاه ... وصوت القوال يراجع للمرة العشرين بصوته الرخم الولهان :
انا من أهوى ومن أهوى انا !

ويظل الصوفي يصفق ويرقص ويدور ، والعرق يتصبب من جبينه
وحليته ، وحرارة الحركة تزيد حرارة القلب ، والطرب يستخف الجسد

ويفقد الهدى ، واذا به يترع ثيابه ، ثم يعث بها رميةً وقريقاً ، واذا بالكل يقتدون به لياقةً وصدافةً ، واذا اجسام عارية تدور وتدور وتدور ، والقوال يكمل بيته :

نحن روحان حللنا بدنا .

تهب الزوبعة في الصحراء ، فتثير الغبار ، وتسير به ، وترتفع وتدور ، وتدور ، ولكنها في اقوى ثورتها تصبو الى الجمود الذي خرجت منه ، ولا تلبث ان تنحل فجأةً وتندثر على الحضيض هباءً منثوراً . هكذا تلك الاجسام النشوى لا تلبث ان تكل ، وتلك الرؤوس ان يستبد بها الدوار ، فاذا بالعاصفة تلين ثم تهدأ ، واذا بالاوصال تتاهل ثم تقف ، واذا بالاجساد تحرّ على الحضيض الذي نهضت منه ، تريد راحة لقلبها الخفوق ، وانفاسها المتقطعة ، وعروقها النباضة .

ها السكون يعود رويداً رويداً الى الحلقة ، تقطعه من آن الى آن زفرات وشهقات ، وتلونه بين الحين والحين قتمات لا واعية : الله ، الله ، الله . . . انا من اهوى ومن اهوى انا . . . ثم يعود الهدى الى هذه الرؤوس ، ويقف الاضطراب ، وتحمد النشوة ، ويحس الصوفي بشيء من البرد فيبدأ يفتش عن ثيابه يلبسها ، ويعود ثانية الى عالمه الارضي الذي خرج منه لمحّة .

انها قد كانت نشوة لذيذة ، لم يشعر بها يوماً خلال مجاهداته الماضية ، وتأملاته الطويلة ، نشوة خارقة لم تكن لتخطر على قلبه ، وها هي قد غابت تاركة حسرة الفوات.^{١)}

(١) لا تزال حلقات الذكر امراً مألوفاً لدى الطرق الصوفية ، وقد وصف لنا الريجاني ، في كتابه ملوك العرب ، احدى هذه الحلقات قال :
« توفي . . . يومئذ شيخ الطريقة المرغنية ، فاشتركت الطرق كلها في حلقة ذكر من اجله ضمت اربعمئة من المصلين . . . »

ما هذه الحالة ؟ اليس هذا القرب من الله الذي يغيب عنده كل محسوس وهذا اندنو من الله الذي تهوي عنده الحواجز ، وحلول الله في القلب الذي انصرف بكليته اليه ؟

الم يكن يردد في نشوته « انا من اهوى ومن اهوى انا » ، أو لم يكن على ثقة مما يقول ؟

ولماذا لا يكون رأى نور الله ؟ ولا يكون حل الله فيه ؟ اليس كل وجود من الله ، وكل موجود قائماً بالله ، يعمل فيه ما يشاء ؟ الم يصعد النبي في معراجهِ الى السماء ، الى المسجد الاقصى ؟ بلى ! بلى !..

وقفت الحلقة اربعة صفوف الواحد وراء الآخر ، ووقف الشيخ احد ابناء الفقيد في وسطها فحزّ كها باسم الله . بدأ بصوت هادئ واشارة لطيفة ، بدأ بـ « لا اله الا الله » . فالت الحلقات الى الامام ، ومالت الى الوراء ، وراحت تكررهما وتردد الشهادة . وكان صوت الاربعة مصلي وكأنه صوت واحد ، وحركة الاربعة مجلي وكأنها حركة واحدة ، يتدرجان سرعة وهياجاً ، عملاً بلهجة الشيخ وباشارة يئناه ، وهو يحول في الحلقة مستحسناً محرّضاً .

الا الله ! وضرب كفّاً على كف ، فرددت الحلقة : الا الله ! بسرعة ملح البصر ، ثم امست كأنها تصيح : لله لله لله ، وسكنت فجأة كمن اغمي عليه . ثم عادت تدريجاً الى الميزان الاول في الصوت والحركة : لا اله الا الله .

وجلس الشيخ ، فقام اخر يشب وثباً ويقول : حَيْمٌ حَيْمٌ (اي حيّ قيّوم) . شرعنا نتقدم هياجاً . دخلنا في دور الزبد والرغاء . حَيْمٌ حَيْمٌ ! وتحرّكت الحلقة حركة شديدة كأنها تدق رأسها في الارض ، ثم نطجاً في الجو . واستمرت في حَيْم حَيْم نصف ساعة ، والشيخ يثب في وسطها ويملج ، ويصفق كفّاً على كف كل مرة ينقلها من درجة في السرعة الى اخرى . وما كادت تنتهي حتى بدأ يسقط صريعاً من فاز بنعمة في « الحال » .

ثم خض ولد لا يتجاوز الثانية عشرة ، وهو اصغر اولاد الفقيد ، فبدأ حيث

لقد رأى الصوفي ربه ، وحل ربه فيه ، فلا سبيل الى الريب ! واي غرابة اذاً ان يكون للبسطامي معراج كمعراج النبي ، وان يحل الله فيه فيقول « سبحاني » ، وان يحل في الحلاج فيهتف « انا الحق » او يتغنى في وجده :

يا نسيم الريح قولي للرشا لم يزدني الورد الا عطشا
لي حبيب حبه وسط الحشا لو يشا يمشي على خدي مشي
روحه روحي وروحي روحه ان يشا شئت وان شئت يشا
ألا ارتب ما شئت في صحة دعوى الحلاج ، ولكنك لن ترتب في اخلاص رجل تسجنه السلطة العباسيه ثماني سنوات فلا يلين ، ويحاكونه سبعة اشهر فلا يرتدع ، ويصدر الامر بقتله فيقاسي الجلد ، وقطع اليدين والرجلين ، وصلباً على جذع.

انتهى اخوه . وكان يتلوى كالسكران ، ويرقص نارة ويثب طوراً كالمجنون . مثل الولد دوره تمثيلاً ادesh حتى الذين الفوا الحلقات ومدeshاتها ، واضحكهم كذلك . كهرّب الولد الحلقة . اضرم فيها النار . قبض على ما تبقى من رشداه ، ورماه خارجاً . صاح بها فرددت الصيحات ، ولم تعد تفهم ما يراد . الا انها اشبه بالانين ، كأن الاربعائة رجل اصيبوا بألم شديد فانتوا انه واحدة .

وبدأت تظهر كرامات الشيخ . هوذا عبد امسى جماداً ، فرفعه اثنان فوق رؤوسهم واخرجوه . وذاك ، وقد خرج من الحلقة فراح يدق رأسه بالحائط ، فسقط صريعاً مغنى عليه . وهاك من يبغى الاجتماع بالله بواسطة عمود من اعمدة المسجد ، فامسكه رفيقاه ، فتلفت منها وضر بها ، ووثب وثبة هائلة ، كان العمود ورأسه خاتمها المفجعة . حملوه مضرجاً بدمه الى خارج المسجد .

بدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيد . سقط امام الولد الزعيم ، في وسط الحلقة ، شيخ لحيته بيضاء طويلة ، والزبد يسيل من فيه عليها ، فوثب فوقه ، ولم يأبه له . وهذا اخر يخلع ثيابه :

والحلاج في نظرنا اكل مثال على ما وصل اليه التمثل الروحي ،
وادرکه التصوف الاسلامي ، في القرن الثالث الهجري .

لقد تدرج العابد من التوبة عن الخطايا والزهد في العالم ، الى ذكر
الله وصفاته تفكيراً وتسليةً ، فالغناء بآيات الوحي واشعار الحب يهاديه
الوجد الراقص ، فالغيبوبة الكبرى والفناء في الالهة ، مع ما يرافق
ذلك من شطح " متطرف " ، ويتبعه من اضطهاد منتظر .

هو القلب البشري بعد ان تفرغ في القرنين الاولين من حب الدنيا ،
وثورات الشهوة ، وثب في القرن الثالث الى الملاء الاعلى يبغي فيه حب
اله ، ووصال باريه ، ناعياً على البشر غفلتهم ، مستغفراً همهم . وعجز
البشر عن اللحاق به فكفروه ، واشخصوه امام محاكمهم تطرحه في
سجونهم ، او ترفعه على صلبانهم ، ليتقموا من هذا الاحق ، الهازئ
بجحمتهم ، الثائر على شرائعهم .

٣٥ - الانحطاط

على ان الاضطهاد لم يمت يوماً نزعة روحية ، وصلب الحلاج ما اخاف
او ردع .
انما الحلاج كان ذروة ، وبعد كل ذروة واد .

« خلعت عذاري واعتذاري لابس ال خلاءة مسروراً بخلعي وخلعتي »
رمى بعامته وبجيتته وبدثاره الى الارض . فاقفوه عند هذا الحد ، واخرجوه في
شعاره من الحضرة الروحانية . استجرنا من ذا المشهد بروح الشيخ الطاهرة : يا
لطيفة ، يا شريفة ، يا كلمية ابي حنيفة ، يا مسكنة العباد ، ومنطقة الجاد ، يا ربة
الحال ، وسراج الترحال ، قفي ، والطفي ، لا تقتلينا بالكرامات ، لا تسكرينا
بالشعذات ، ولا تؤاخذني شيوخ الطرق والحلقات ، امين ، امين .

(١) الشطح كلام يعني ان الصوفي والله واحد ، من مثل « انا الحق » .

ان الشعور الروحي ، اساس كل تصوف ، يبدأ صახباً جامحاً ، ثم تخفف من اندفاعه الايام ، ويمد اليه العقل يده ، فيدب اليه الهمود ، ويدب التحجير ، ويعقب الانحطاط .

وان العقل تناول التصوف باسم المنطق ، فاذا اكثر الصوفيين يتخذون الحلول اصلاً ، ويتطرقون منه الى اغرب النتائج :

ان الصوفي ، وقد اتحد بربه ، لفني حل من الشريعة ، من الاوامر والنواهي ، يكفيه الحب ديناً ، والسعي الى لقاء الله فرضاً . وما دعوى الفقهاء ، ان اباح الله لاوليائه ما يحرمه على الجماعات ؟

وان الله قد يصطفي اجساماً يسكنها ، وحسناً يتجلى فيه ، فلم لا يكون حب الوجه الحسن حباً لله^(١) ، والنظر الى المرد سبيلاً لاثارة الوجد بريئاً ؟ وان الالهام الصوفي لعلم رباني ، يصدق الله على اوليائه حين يفنون فيه ، وهو يفوق كل حكمة الفلاسفة ، وكل علم المتكلمين ، فلم التعلم ، ولم عناء العقل ؟

وهكذا افسد العقل على هؤلاء الصوفيين الطريقة ، بل قل افسدتها الاهواء ، التي تطغى على العقل وتغويه ، فاذا سلوك التصوف طلب للذة او استباحة هوى .

كان الوجد وسيلة يراد بها الاتصال بالله ، فاصبح لذة تطلب لذاتها ، واصبح السماع والرقص ضرباً من ضروب اللهو^(٢) ! قال ابن الجوزي

(١) قال ابن طاهر ، وكان يذهب مذهب الاباحية ، ويميز النظر الى المرد : رأيت جارية في مصر مليحة ، صلى الله عليها وسلم ! فقيل له : تصلي عليها ؟ فقال : صلى الله عليها ، وعلى كل مبيع ! (عن ابن الجوزي)

(٢) قال ابو العلاء :

(٥٩٧ هـ = ١٢٠٠) : «التصوف طريقة كان ابتدأوها الزهد الكلي ثم ترخص المنتسبون اليها بالسمع والرقص ، فمال اليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ، ومال اليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب . » وهكذا أصبحت الحلقات الصوفية مهازل روحية كثر فيها تمزيق الثياب والزعيق والغشيان ، وأصبح الصوفي ، على قول الشاعر :

يئن اذا اومضت رنة ويزأر منها زئير الاسود

وكان تبثل بعضهم احتقاراً للذات الجسد ، وتفرغاً للتعب ، فاذا به ، على رأي ابن الجوزي ، نوع من «تلبيس ابليس» جرّهم به الى صعبة الاحداث من المريدين ، فالميل اليهم ، مع ما يتبع ذلك من جناية على الطبيعة والاخلاق معاً .

وكان الصوفي يرغب عن الجاه ، وي طرح الكبرياء ، لانها الى الاثم دافع وطريق ، فاذا ببعضهم يرون في ارتكاب الاثم وسيلة الى طرح الجاه^(١) ثم كان الاقبال على التصوف ، وكانت الجمعيات الصوفية ، وكان ما يتبع اقبال الجماعات على الكمال من تعثر وتدهور^(٢) .

ارى جيل التصوف شر جيل فقل لهم - واهون بالحلول -!

أقال الله حين عبدقوه كلوا اكل البهائم وادقصوا لي!

(١) قال ابن الجوزي : «وفي الصوفية قوم يستنون الملامية اقتحموا الذنوب وقالوا : مقصودنا ان نسقط من اعين الناس فنسلم من الجاه» .

(٢) منذ القرن الرابع الهجري بدأ بعض المتصوفين يعيشون في جماعة . وفي القرن السادس تكونت الجمعيات الكبرى وانتشرت . وكانت هذه الجمعيات تتميز بمقائد وطقوس وانظمة ، انما تشترك جميعها في وجود شيخ على رأسها يقبل الاحداث المريدين ، ويرشد الجميع في سلوك الطريقة ، وطلب الكمال .

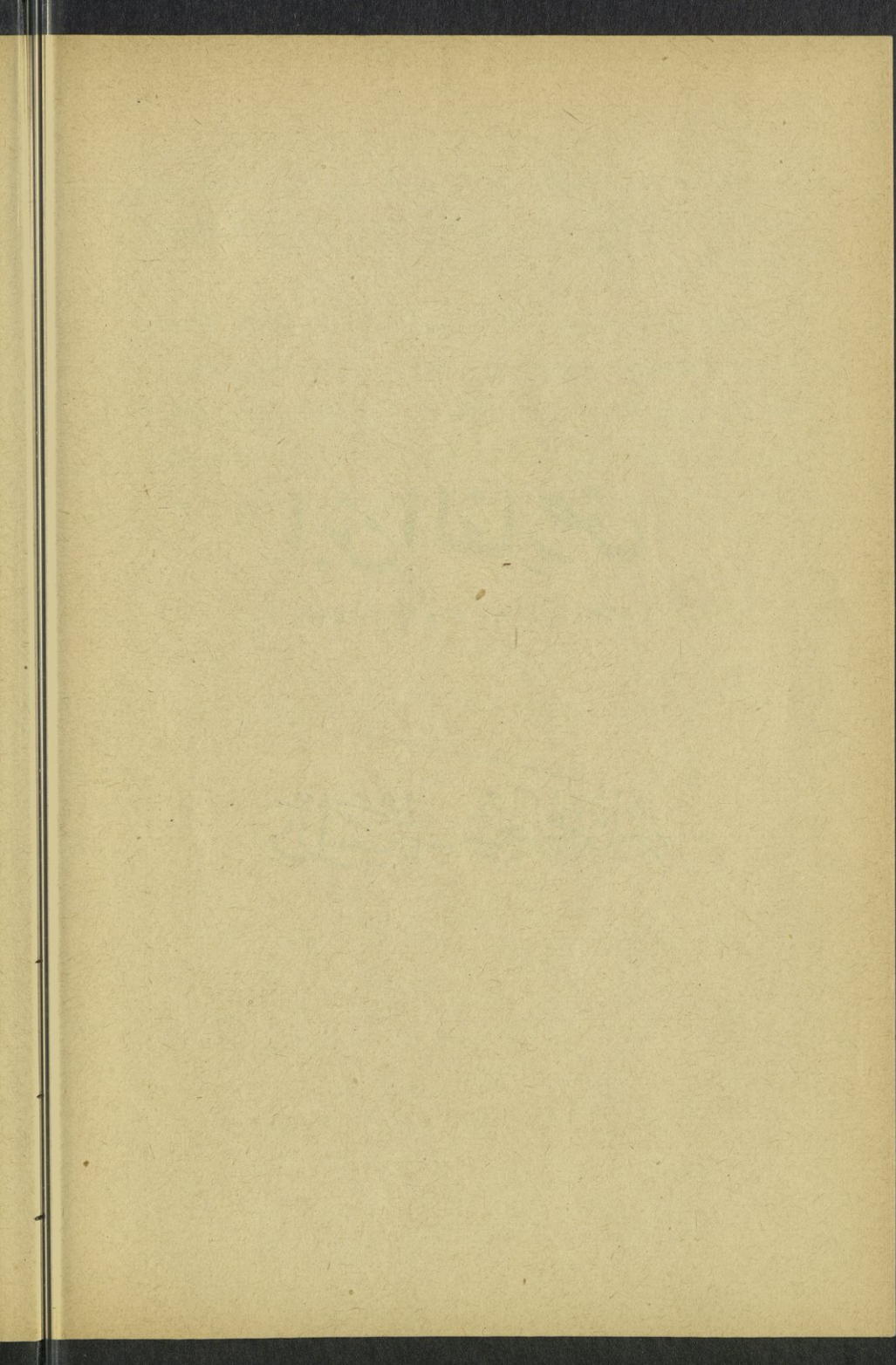
وهكذا انخط التصوف ، لان الشعور الروحي الذي غذاه قد جف
 مع الايام ، ولان العقل حاد به عن مجراه الاصيل ودفع به الى التجبر ،
 ولأن اكثر من اقبلوا عليه ما كانوا اهلًا ليسلكوه .

ولعل ابن الفارض خير مثال على صوفي انتابه من عوامل الانحطاط
 ما انتاب معاصريه ، وسمت به روح اغنى من ارواحهم ، فظل مضطرباً ،
 قلقاً ، يغالي في التواجد ويصون النفس ، يحب الجمال ويمارس الزهد ،
 يقول الحلول ولا يصبح الله ، تارة تختلط لديه الارض والسماء وطوراً
 تفترقان ، مما شوقنا الى درسه ، واغرانا بتحليل نفسيته وتقهم روحه .

ابن الفارض

١٢٣٤ - ١١٨٠ = ٥٦٦ - ٦٣٢ هـ

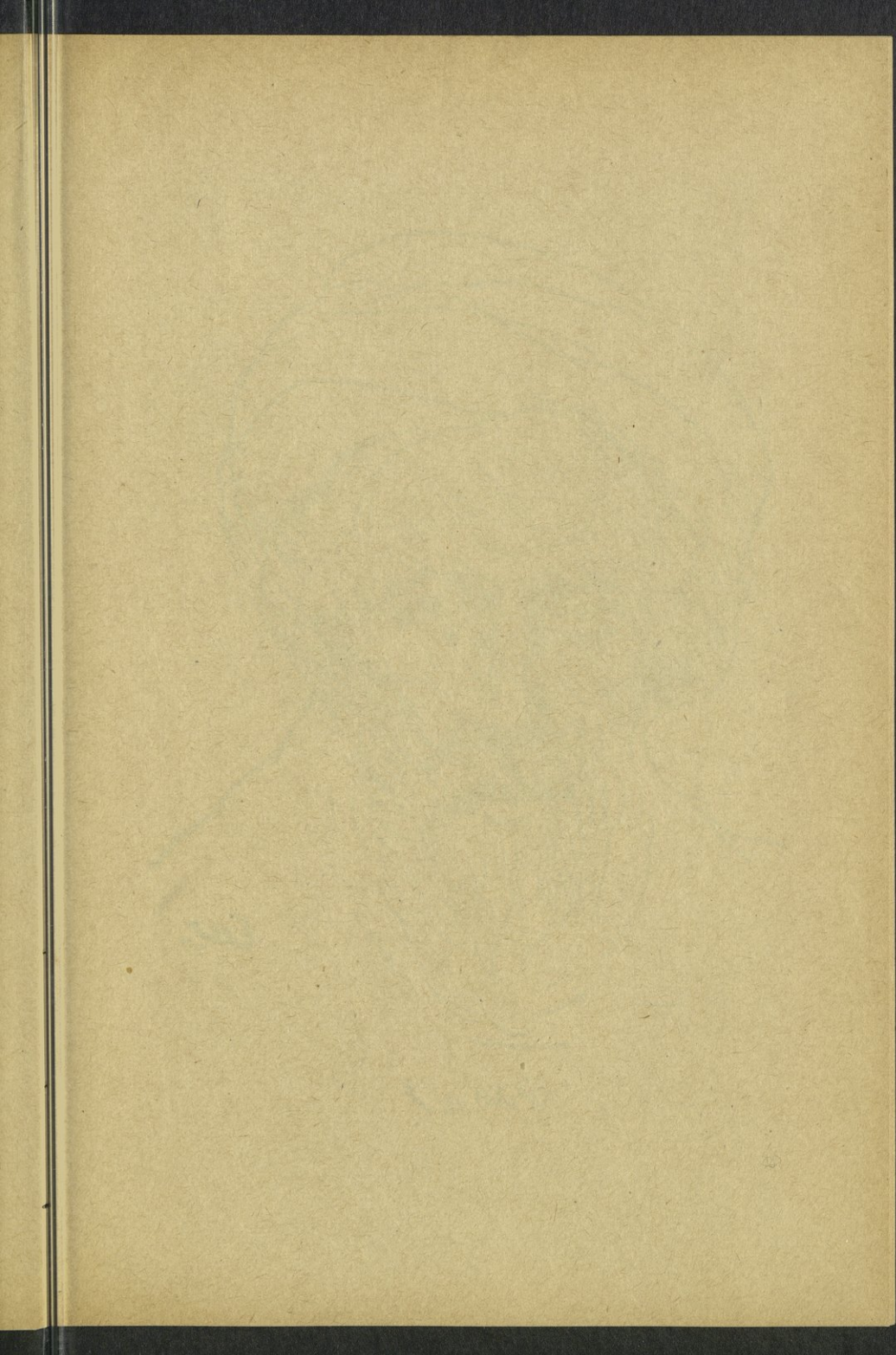
دراسة - شعر مختار





عمر

عمر بن الفارض



ترجمته

لخفيده

« قال الفقير المعترف بذنبه ... علي سبط الشيخ ابن الفارض ...
اخبرني سيدي ولده ... قال :

« كان الشيخ ، رضي الله عنه ، معتدل القامة ، وجهه جميل حسن مشرب بجمرة ظاهرة ، واذا استمع وتواجد وغلب عليه الحال ، يزداد وجهه جمالاً ونوراً ويتحد العرق من سائر جسده حتى يسيل تحت قدميه على الارض ، ولم ار في العرب ولا في العجم مثل حسن شكله ، وانا اشبه الناس به في الصورة . وكان عليه نور وخفر ، وجلالة وهيبة ؛ ومن فهم معاني كلامه دلت معرفته على مقامه ، ومن اختصه الله بمحبته وانه يعرف المحب بين اهل المحبة من جنسه ، وقد جعل الله المحبين خزائن اسراره المصونة ومعادن قوله تعالى « يحبهم ويحبونه » . وكان اذا مشى في المدينة ، تردحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، ويقصدون تقليل يده فلا يمكن احداً من ذلك ، بل يضافحه . وكانت ثيابه حسنة ، وراحتهم طيبة ، وكان اذا حضر في مجلس ، يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة ، وسكينة ووقار . ورأيت جماعة من مشايخ الفقهاء والفقراء ، واكابر الدولة من الامراء والوزراء والقضاة ورؤساء الناس يحضرون مجلسه ، وهم في غاية ما يكون من الادب معه ، والاتضاع له ، واذا خاطبوه فكأنما يخاطبون ملكاً عظيماً . وكان ينفق على من يرد عليه نفقة متسعة ويعطي من يده عطاء جزيلاً . ولم يكن يتسبب في تحصيل شيء من الدنيا ، ولا يقبل من احد شيئاً ؛ وبعث اليه السلطان محمد الكامل الف دينار فردها اليه ، وسأله ان

يُجهز له ضريحاً عند قبر امه بتربة الامام الشافعي فلم ينعم له بذلك ،
ثم استأذنه ان يبنى له مزاراً مختصاً به فلم يأذن له بذلك ...

« سمعتُ الشيخ - ابن الفارض - يقول : كنت في اول تجريدي ،
استأذن والدي ، واطلع الى وادي المستضعفين ، بالجبل الثاني من المقطم ،
وآوي فيه ، واقم في هذه السياحة ليلاً ونهاراً ، ثم اعود الى والدي
لاجل بره ، ومراعاة قلبه . وكان والدي يومئذ خليفة الحكم للعزيز
بالقاهرة ومصر المحروستين ، وكان من اكابر اهل العلم والعمل فيجد
سروراً برجوعي اليه ، ويازمني بالجلوس معه في مجالس الحكم ومدارس
العلم ، ثم اشتاق الى التجريد ، فاستأذنه واعدت الى السياحة . وما
برحت افعل ذلك مرة بعد مرة ، الى ان سئل والدي ان يكون قاضي
القضاة فامتنع ، ونزل عن الحكم ، واعتزل الناس ، وانقطع الى الله
تعالى بقاعة الخطابة في الازهر الى ان توفي ، فعاودت التجريد والسياحة ،
وسلوك طريق الحقيقة فلم يفتح علي بشيء . فحضرت يوماً من السياحة
الى القاهرة ، ودخلت المدرسة السيوفية ، فوجدت رجلاً شيخاً بقالاً على
باب المدرسة ، يتوضأ وضوءاً غير مرتب . . . فقلت له يا شيخ ، انت
في هذا السن ، على باب المدرسة ، بين فقهاء المسلمين ، وتتوضأ وضوءاً
خارجاً عن الترتيب الشرعي ؟ فنظر اليّ وقال : يا عمر ، انت ما يفتح
عليك في مصر ، وانما يفتح عليك بالحجاز ، في مكة شرفها الله تعالى ،
فاقصدها فقد آن لك وقت الفتح . فعلمت ان الرجل من اولياء الله
تعالى ، وانه يتستر بالمعيشة ، واظهار الجبل بلا ترتيب الوضوء ، فجلست
بين يديه ، وقلت له : يا سيدي ، اين انا واين مكة ، ولا اجد
ركباً ولا رفقة في غير اشهر الحج ؟ فنظر اليّ واثار بيده وقال : هذه
مكة امامك . فنظرت معه ، فرأيت مكة شرفها الله تعالى ، فتركته
وطلبتها فلم تبرح امامي الى ان دخلتها في ذلك الوقت ، وجاءني الفتح

حين دخلتها ، فترادف ولم ينقطع . . . ثم شرعت في السياحة في اودية مكة وجبالها ، وكنت استأنس بالوحش . . . واقت بوادٍ كان بينه وبين مكة عشرة ايام للراكب المجد ، وكنت آتي منه كل يوم وليلة ، واصلي في الحرم الشريف الصلوات الخمس ، ومعني سبع عظيم الحلقة يصحبني في ذهائي واياي ، وينخ لي كما ينخ الجمل ، ويقول يا سيدي اركب ، فما ركبته قط . . . ثم بعد خمس عشرة سنة ، سمعت الشيخ البقال يناديني : يا عمر ، تعال الى القاهرة احضر وفاقي ، وصل علي ، فاتيت مسرعاً فوجدته قد احتضر ، فسلمت عليه وسلم علي ، وناولني دنائير ذهب ، وقال جهزي بهذه ، وافعل كذا وكذا . . . وتوفي رحمه الله ، فجهزته كما اشار...^(١)

« وقال ولده - محمد ولد ابن الفارض - رحمه الله تعالى : رأيت الشيخ ، رضي الله عنه ، نائماً مستلقياً على ظهره ، وهو يقول : « صدقت يا رسول الله ، صدقت يا رسول الله ! » ، رافعاً صوته ، مشيراً باصبعه اليمنى واليسرى اليه ، واستيقظ من نومه ، وهو يقول كذلك ، ويشير باصبعيه كما كان يفعل وهو نائم . فاخبرته بما رأيته وسمعته منه ، وسألته عن سبب ذلك ، فقال : يا ولدي ، رأيت رسول الله في المنام ، وقال لي يا عمر لمن تنتسب ؟ فقلت يا رسول الله ، انتسب الى بني سعد ، قبيلة حليلة السعدية مرضعتك . فقال لا ، بل انت مني ، ونسبك متصل بي . فقلت يا رسول الله ، اني احفظ نسبي عن ابي وجدي الى بني سعد . فقال لا ، ماداً بها صوته ، بل انت مني ، ونسبك متصل بي . فقلت صدقت يا رسول الله ، مكرراً لذلك مشيراً باصبعي كما رأيت وسمعت . . . »

(١) مات ابن الفارض بعد عودته من مكة باربعة سنوات ، فيكون سافر اليها في نحو السابعة والثلاثين من عمره . وقد سافر وعاد باشارة من استاذ البقال .

وقال ولده ، رحمه الله : سمعت الشيخ ، رضي الله عنه ، يقول :
 رأيت رسول الله في المنام ، وقال لي : يا عمر ما سميت قصيدتك ؟ فقلت :
 يا رسول الله ، سميتها «لوائح الجنان وروائح الجنان» . فقال : لا ،
 بل سمها «نظم السلوك» فسميتها بذلك . وقال : حضر في مجلس
 الشيخ رضي الله عنه ، رجل واستأذنه في شرح القصيدة نظم
 السلوك ، فقال له : في كم مجلد تشرحها ؟ فقال : في مجلدين . فتبسم
 الشيخ وقال : لو شئت لشرحت كل بيت منها في مجلدين .

قال ولده رحمه الله : كان الشيخ في غالب اوقاته لا يزال دهشاً ،
 وبصره شاخصاً ، لا يسمع من يكلمه ولا يراه ، فتارة يكون واقفاً ،
 وتارة يكون قاعداً ، وتارة يكون مضطجعا الى جنبه ، وتارة يكون
 مستلقياً على ظهره مسجى كالميت ، ويعر عليه عشرة ايام متواصلة ، وقل
 من ذلك واكثر ، وهو على هذه الحالة ولا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم
 ولا يتحرك ، فهو كما قيل :

تري المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا
 ثم يستفيق ، وينبث من هذه الغيبة ، ويكون اول كلامه انه عيلى
 من القصيدة نظم السلوك ما فتح الله عليه . . . منها من الثلاثين والاربعين
 والخمسين بيتاً . . .^{١)}

وقال لي ولده : سمعت الشيخ يقول : حصلت مني هفوة ، فوجدت
 مؤاخذه شديدة في باطني بسببها ، وانحصرت باطناً وظاهراً حتى كادت
 روحي تخرج من جسدي ، فخرجت هائماً كالهارب من امر عظيم فعله ،
 وهو مطالب به ، فطلعت الجبل المقطم ، وقصدت مواطن سياحتي وانا

(١) نظم ابن الفارض بعض شعره في الحجاز ، وبعضه في مصر ، الا انه نسق
 ديوانه واملاه في مصر ، بعد عودته من الحجاز .

ابكي واستغيث واستغفر ، فلم ينفرج بالي ، وقصدت مدينة مصر ،
ودخلت جامع عمرو بن العاص ، ووقفت في صحن الجامع خائفاً مذعوراً ،
وجدت البكاء والتضرع والاستغفار فلم ينفرج ما لي ، فغلب
علي حال مزعج لم اجد مثله قط ، فصرخت وقلت :

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط
قال فسمعت قائلاً يقول بين السماء والارض اسمع صوته ولا ارى شخصه :

محمد المهادي الذي عليه جبريل هبط

وقال لي ولده : رأيت الشيخ نهض ، ورقص طويلاً ، وتواجد
وجدًا عظيماً ، وتحدّر منه عرق كثير حتى سال تحت قدميه ، وخرّ الى
الارض واضطرب اضطراباً عظيماً ، ولم يكن عنده غيري ، ثم سكن
حاله ، وسجد لله تعالى ، فسألته عن سبب ذلك فقال : يا ولدي ، فتح
الله علي بعني في بيت لم يفتح علي بثله ، وهو :

وعلى تفنّن واصفيه بحسنه ، يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وحكى لي ولده قال : كان الشيخ ماشياً في السوق بالقاهرة ، فر
علي جماعة من الحرسية يضربون بالناقوس ، ويغنون مبهذين البيتين وهما :

مولاي ، سهرنا نبتغي منك وصال مولاي فلم تسمح فنمنا بخيال
مولاي فلم يطرق ، فلا شك بان ما نحن اذا عندك مولاي ببال

فلما سمعهم الشيخ صرخ صرخة عظيمة ، ورقص رقصاً كثيراً في
وسط السوق ، ورقص جماعة كثيرة من المارين في الطريق ، حتى صارت
جولة واسماع عظيم ، وتواجد الناس الى ان سقط اكثرهم الى الارض ،
والحراس يكررون ذلك ، وخلع الشيخ كل ما كان عليه من الثياب ،
ورمى بها اليهم ، وخلع الناس معه ثيابهم ، وحمل بين الناس الى الجامع
الازهر ، وهو عريان مكشوف الرأس ، وفي وسطه لباسه ، واقام في

هذه السكره اياماً ، ملقى على طهره مسجى كلميت ، فلما افاق جاء الحراس اليه ومعهم ثيابه ، فوضعوها بين يديه فلم يأخذها . وبذل الناس لهم فيها ثمناً كثيراً فمنهم من باع ، ومنهم من امتنع من بيع نصيبه وخلاه عنده تبركاً به .

وحكى لي ايضاً قال : كان الشيخ ماشياً في الشارع الاعظم ... وانا معه ، واذا بنا نلحقة تنوح وتندب على ميتة في طبقة ، والنساء يجاوبنها وهي تقول :

سَتي مَتي مَتي حقاً اي والله حقاً حقاً

فلما سمعها الشيخ صرخ صرخة عظيمة ، وخر مغشياً عليه ، فلما افاق صار يقول ويردد مراراً :

نَفسِي مَتي مَتي حقاً اي والله حقاً حقاً

وحكى لي ايضاً قال : كان الشيخ جالساً في الجامع الازهر ، على باب قاعة الخطابة ، وعنده جماعة من الفقراء والامراء وجماعة من مشايخ الاعجام المجاورين بالجامع وغيرهم ، وكلما ذكروا حالاً من احوال الدنيا مثل الطشت خانه والفرشخانه وغير ذلك ، يقول : هذا من زخم العجم . فبينما هم يتفاوضون في ذلك ، ويفخمون زخم العجم ، اذ المؤذنون رفعوا اصواتهم بالاذان جملة واحدة فقال الشيخ : وهذا زخم العرب ! وتواجد وصرخ كل من كان حاضراً حتى صار لهم ضجة عظيمة ...

وحكى لي ولده قال : كان للشيخ اربعينيات^(١) متواصلة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام . وفي بعض ايام اربعينية اشتت نفسه عليه هريسة ،

(١) قال ابن الجوزي حاكياً عن الصوفية : « قد اخرج لهم بعض المتأخرين الاربعينية : يبقى احدهم اربعين يوماً لا يأكل الخبز ، ولكنه يشرب الزبونات ، ويأكل الفواكه الكثيرة اللذيذة . »

وكان في آخر ايام الاربعين ، فقال : يا نفس ، اما تصبرين بقية هذا اليوم وتقطين على الهريسة ؟ فأبت ، وقالت : لا بد من الهريسة في هذا الوقت ! قال الشيخ : فاشتريت الهريسة ، وجئت الى قبة . . . ورفعت اول لقمة الى فمي ، فالتشق جدار القبة المذكورة ، وخرج منها شاب جميل الوجه ، حسن الهيئة ، ابيض الثياب ، عطر الرائحة وقال : تف عليك ! فقلت : نعم ، ان اكلتها ! فرميت تلك اللقمة من يدي في الحال ، قبل ان تصل الى فمي ، وتركت الهريسة ، وخرجت من الحرم الى السياحة ، وأدبْتُ نفسي بزيادة عشرة ايام في المواصلة على الاربعين لتتمة خمسين يوماً . . .

وحكى لي قال : كان الشيخ يقيم في شهر رمضان بالحرم لا يخرج الى السياحة ، ويطوى ويحيي ليله . . . فشد والدي في وسطه مئزراً ، وكذلك المجاورون بالحرم ، من اول شهر رمضان ، وهم في طلب ليلة القدر^(١) ، فتارة يطوفون ، وتارة يصلُّون ، وانا معهم ، فخرجت ليلاً من الحرم في العشر الاواخر لازيل حقنة بظاهر الحرم ، فرأيت البيت والحرم ، ودور مكة وجبالها ساجدين لله تعالى ، ورأيت انواراً عظيمة بين السماء والارض ، فوجدت هية ورعباً شديداً ، وجئت الى والدي مهرولاً ، فاخبرته بذلك ، فصرخ وقال للمجاورين الواقفين في طلب ليلة القدر : هذا ولدي خرج يبول ، فرأى ليلة القدر ! فصرخ الناس معه الى ان علا ضجيجهم بالبكاء والدعاء والصلاة والطواف الى الصباح ، وخرج والدي في اودية مكة هائماً في السياحة ، ولم يدخل الحرم الى يوم العيد في تلك السنة .

وحكى لي ايضاً قال : كان الشيخ يتردد الى المسجد المعروف

(١) هي احدى الليالي العشر الاخيرة من رمضان ، التي عددها فرد لا زوج ، كالخامسة والسابعة .

بالمشهي ، في أيام النيل ، ويحب مشاهدة البحر ... فتوجه اليه يوماً ،
فسمع قصاراً يقصر ويضرب مقطعاً على الحجر ويقول :

قطع قلبي هذا المقطع ما كان يصفو او يتقطع

فما زال الشيخ يصرخ ، ويكرر هذا السجع ساعة بعد ساعة ،
ويضطرب اضطراباً شديداً ، ويتقلب على الارض ، ثم يسكن اضطرابه
حتى يظن انه قد مات ، ثم يستفيق ويتكلم معنا بكلام لديني ما سمعنا
مثله قط ، ولا نحسن ان نعبر عنه ، ثم يضطرب على كلامه ، ويعود الى
حال وجده ... ولم يزل على هذا الحال من حين سمع كلام القصار الى
ان توفي ، رحمة الله عليه .

قال ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ) = (١٢١١ = ١٢٨٢) في
ترجمة ابن الفارض :

« سمعت انه كان رجلاً صالحاً ، كثير الخير ، على قدم التجرد ،
جاور بمكة زماناً ، وكان حسن الصحبة ، محمود العشرة » .

نصوفه

الحب كائن حي خاضع لقوانين الحياة ، يعوزه الغذاء اليومي ،
وينمو ببطء الزمن ، وغنى الروح زبدة آلامنا وافراحنا ، ونعم الحياة
المتكسرة على شواطئنا .

لهذا اذا ولجت يوماً هيكل حب تستوحيه اسراره ، او وقفت امام
شاعر تتفهم روحه ، فانت لن تسمع ولن ترى ما لم تعص في اعماق
الماضي ترافق نمو ذاك الحب ، وقوجات هذه الروح .

وانا لنحتاج الى مثل هذا الولوج في ثنايا الزمن ، وطيات الحياة ،
عندما نعرض لدرس ابن الفارض ، لفهم ذاك القلب الذي احب حتى
الفناء ، وغنى الشعر حتى الثمل .

ولكنها امنية خائبة ، لان التاريخ قد اهلل ابن الفارض اهمالاً ،
فجعلنا مناهل فكره ، وتاريخ قلبه ، واحداث حياته . ان غواة الزهور
اذا صادفوا منها جميلاً ، دهشوا به ، ونهلوه شماً وتحديقاً ، وفاتهم السؤال
عن التربة التي نبت فيها ، واليد التي تعهدته بعنايتها ، والسماء التي مدته
بنورها . وكأن الناس دهشوا بشعر ابن الفارض ، وثلوا بنغماته ،
فاكتفوا به ، واعرضوا عن روح غنته ، وحياة ابدعته ، حفظوا الشعر
وشرحوه ، واهملوا الشاعر او نسوه .

اجل ، هناك ترجمة غير يسيرة وضعها الحفيد نقلاً عن الولد ، تراه
فيها جميلاً وقوراً ، وزاهداً ابياً ، وصائماً جائراً ، وحاجاً يطيل حجه او
سائحاً يناجي ربه . وتراه دائم الوجد ، دائم الرقص والصراخ ، يتبرك
بثيابه الناس ، وتحدث على يده الكرامات .

ولكنها ترجمة حفيد ، يوحيا التشيع ، ويسودها الغلو ، فلا يسعنا
الاطمئنان الى كل ما تسرده من كرامات ، وتصفه من زهد وصوم .

انما مهما كان ايمانك وايماني ضعيفين ، ومهما بالغنا في التحفظ والالتزام
فهناك حقائق لا بد من اقرارها .

واول ما لا سبيل الى انكاره فضيلة ابن الفارض ، او على الاقل
نزوعه الى الفضيلة . ان ابن خلكان يثبت صلاحه ، واقدامه على التجرد
والخير ، ويثبته لا كحكم شخصي عليه ، بل كما سمعه ، اي كما اجمع
الناس على تأكيده ، وقلما اجمع الناس على صلاح موهوم . ثم اننا مهما
اتهمنا الحفيد بالتشيع لا نستطيع اتهمه بالاختلاق المحض ، بتقديس
شخص لم يكن لينزع الى القداسة . لقد بالغ الحفيد وجسم ، ولكنه
لم يتخيل تخيلاً ، ويخترع اختراعاً . انه غالى في تواجد جده ، كما غالى
في كراماته واصوامه ، انما لسنا نشك في ان ابن الفارض كان صوفياً
مخلصاً في تصوفه ، صادقاً في اقباله على التقوى ومناجاة الله .

وامر ثان لا سبيل الى انكاره هو استعداد ابن الفارض الفطري
للتصوف . ان حالة الوجد تنتهي في اوجها الى فقدان الشعور بالوجود
الذاتي المستقل ، والاندماج المطلق بالعالم الخارجي ، او قل بالله الذي
لم يعد العالم سوى بعض مظاهره المحسوسة . لهذا كل نزعة الى الخلوة ،
الى خرق حدود الناس للانبساط في حضن الطبيعة الفسيح ، او الذهول
امام موجات البحار ، الاتية من شواطىء بعيدة ، كل نزعة الى توسيع
الافاق ، وهدم سدود الشخصية المحدودة ، نعتها استعداداً فطرياً
للتصوف . ومثل هذه النزعة واضحة عند ابن الفارض ، تثبت وجودها
سياحاته الطويلة ، وخلواته المتواصلة ، وانسه بالجبال والبحار .

واذا سلمنا بان ابن الفارض كان مفطوراً على التصوف ، وانه جارى
فطرته فزهد واحب ، وكوّن له روحانية غنية ، يصبح من الشيق
درس هذه الروحانية وتحليل عناصرها الفكرية والعاطفية ، وهذا ما
نحاوله الآن استناداً الى شعره اجمالاً وتأنيته خاصة .

ان معتققي الاديان القائلة بالثواب والعقاب يختارون غير قليل في ما سموه الرذل . اذا كان الله سبق فرأى ان موسى ، مثلاً ، سيكفر به او يعصاه فيكون نصيبه الهلاك ، فلماذا خلقه ، وهو لو خير لا أثر لعدم على عذاب ابدى ؟ ان معضلة كهذه تضع عدالة الله ، او على الاقل محبته ، موضع بحث وريب ، وقد اثارت جدالات طويلة ، وحلولاً متنوعة ، لا يتسع مثل هذا الدرس لعرضها .

اما القرآن فقد حل هذه المعضلة باقتراضه عهداً ازلياً اخذه الله على البشر بطاعته ووجهه . جاء فيه : « واخذ ربك من بني آدم ، من ظهورهم ، ذريتهم واشهدهم على انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا بلى . — شهدنا ان تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين ا » (١٧١) . فالله اذاً احضر يوماً امامه كل الاجيال التي ستلد من آدم ، واخذ عليهم قسماً بطاعته ، ولهذا اصبحوا مسؤولين عن اتيانهم الوجود ، وارتكابهم المعاصي ، وسيدكر الله الضالين قسمهم يوم القيامة .

وان هذه العقيدة كانت منهلاً خصباً لخيال المتصوفين وشعورهم . لقد جعل الصوفيون من يوم الميثاق هذا يوم ولاء شرب فيه المختارون . الحمرة الابدية ، خمرة الحب الالهى ، تلك التي تغنى بها ابن الفارض في شعره :

شربنا على ذكر الجيب مدامة سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم وجعلوا من يوم الميثاق ايضاً يوم الهام ازلي ، افاض به الله علمه على اوليائه ، فكان للنفس من المعرفة ما كان لها في عالم « المثل » الافلاطوني ، وكان لها تذكار كالتذكار الافلاطوني :

وفي عالم التذكار للنفس علمها المقدم ، تستهديه مني فتيقي .
فالصوفي اذاً في عالمنا غريب . هو آت من شواطئ قصية ، حيث

تجلت له الالهة لمحّة ، فتركت في قلبه نشوة جمال ذابت على ذكرها
 الدهور ، وفي عقله غمرة نور خبت لديها حكمة الاجيال . لكنه اذ اتى
 عالم الخلق ، وحل في هذا الجسد ، انتابته نزعات قوية تحولته عن ربه ،
 وتنسيه عهداً قطعه ، ونمرة سكر بها ، وبهرت حواسه اشعة النور
 الزائل فحجب عنه انوار الفجر الاول .

فهاء الصوفي اذاً في التخلص من قيود الجسد ، والغفلة عن سحر
 الالوان والخطوط ، كي يجدد الله في قلبه شمرة الحب الاول ، ويسكب
 في روعه نوره وهدهد .

لهذا ترى ابن الفارض يحاول تكسير قيوده الارضية ، تحته ذكرى
 عهده السابق ، ويقلقه الحنين الى النشوة الاولى .

تراه يعرض عن المجد الى ذل الحمول ، وعن الغنى الى الفقر القنوع ،
 وعن بهجة الحياة الى الموت في سكرة الهوى :

وماذا عسى عني يقال سوى قضى فلان هوى ، من لي بذا وهو بغيقي ؟
 انما لا تظن ان مثل هذا التحرر من اميال الارض ، من مجد يهونا ،
 ومال يشبع شهواتنا ، وهناء يجب لنا الحياة ، لامر سهل نحققه اذ
 نشاء . ان مثل هذا التحرر لعمل طويل شاق ، واذا نخالنا بلغناه نانا
 نجد في اعراضنا عن المجد مجداً اخفى ، وفي طلبنا الفقر غنى اسمى ، وفي
 احتقارنا الموت شهوة حياة هناعاً ، نانا لا تزال قطب جهادنا ، وغاية
 سبلنا ، حين كنا نطلب الفناء في الله ، والعودة الى ولاء يوم الميثاق .
 ان حب الدنيا قيد ، وحب الآخرة اثم ، ورجاء الكمال أثره ، فانزع
 منك كل ميل ، وتجرد عن كل غاية ، واطلب ربك حبيباً وحيداً .

هو هذا الهدف دفع ابن الفارض الى ذاك الصوم الطويل يروض به
 جسده ، وذاك السهر الطويل يناجي فيه ربه ، وذاك الحج الطويل يتثبت

فيه من قوته ليخطو الخطوة الكبرى النهائية ، خطوة الصوفي نحو الاتحاد بربه ، وتلاشي حدود الشخصية للفناء في الوجود الكلي . لقد ضاقت به حدود كيانه ، وحدود العالم ، فاخذ يهدم تلك الحدود ، يقطع كل علاقاته بالارض وبلذات الارض ، ويزهّد في كل رغائب النفس وشهوات الذات ، يتعرى من حدود المكان والزمان ليتصل بالله الذي لا يحصره وقت او يحده اين .

ولكن الله حبيبة عزيزة الوصل ، عزيزة المنال ، تلد القطيعة ، وتستعذب الالم ، واذا ابن الفارض حبيب ولهان لا تجف له دمة او يهدأ له حنين ، يشكو المهجران شكوى اتعس المحرومين ، ويعاني الجفاء معاناة اصبر المحبين ، علّه يأتي يوم ترق فيه الحبيبة لالامه ، وترضى عن جهاده ، فتمزق الحجب ، وتكشف القناع ، وتناجيه بنجوى الحبيبة في هدأة العشايا .

وابن الفارض على يقين من مجيئ ذاك اليوم ، يقين الحب من قوته .
الشرع عقائد جافة ، والفلسفة اراء حثرة ، وكل سبل العقل محدودة ضيقة ، فاذا لم يكن الحب سبيل الله ، فقد ضاعت السبل ، وانقطعت الصلة بين الانسان وربّه .

وحج ابن الفارض الى مكة ، وقضى فيها خمس عشرة سنة ، يسوح في وهادها وتلاها ، قلقاً ضائعاً ، ينتظر السياحة العظمى الى الوطن الاول . على الجبل سمع موسى ربه ^(١) ، وفي ليلة وحيدة مختارة اسرى الله باحمد عبده ^(٢) ، واراد بها وجهه ، فعلى اية تلة من تلال مكة سيناديه الله ، واية ليلة من ليالي الطواف سيجذبه اليه ؟

(١) ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : ربّ ، أرني انظر اليك . قال : لن تراني ! (سورة الاعراف : ١٤٣)

(٢) سبحان الذي اسرى ببعد ليلة من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى (اي السماء) . . . (سورة الاسراء : ١)

ومن ادراك؟ لعل الوجد الاول كان طوافاً ليلياً... دار ابن الفارض
ودارت في اذنه نغمات المصلين ، وفي روحه هزة المني ورعشات الحنين ،
واذا نغم بعيد يأتيه من عالم سحيق ، نغم حديث ربه له يوم الميثاق
الازلي ، واذا الروح تنفض عنها ظلال الزمن ، وتستفيق في لحظة على
نشوة المسامرة الاولى .

هي الستور قد هوت ، وهو جمال الله قد بدا ، وهي الروح تحس
رعشة طرب لم تعرف مثلها قبل اليوم ، وتحس سكرة حب تغيب عندها
كل سكرات الارض ، وتغيب الارض نفسها ، بل تغيب هي عن ذاتها
في دهشة السفور الاول .

يدهشك بعد ذاك ان ترى ابن الفارض مصفحاً راقصاً مضطرباً ،
وان يكون ذاك فاتحة نوبات وجدية عديدة ، كثر فيها التصفيق والرقص
والاضطراب ؟ ولم يدهشك ؟ الا ترى الطفل ، اذا غنى له مربيه ،
جدت فيه رعشة لا يسكنها الا الهز ؟ هو الغناء ذكره بخطاب يوم الميثاق
وهي العودة الى الوطن هاجت في نفسه الحنين ، وهو الهز عاد به الى
الهدوء . وان السماع يبعث نفس الذكرى ، وان ارواح الاولياء تحس
نفس التزعة الى الله ، وان الحركة والرقص يخففان من نزعتها ويسكنان .

•

وابن الفارض اذ تجاوز عهد الرياضة ، وبلغ الوجد ، اصبح يجدثنا
عن اتحاده بالله ، وما اولاه ذاك الاتحاد من علم بالغيب واثبات الكرامات ،
كما اصبح يتقن بوحدة الوجود الكوني ووحدة الجمال .

وفي حال الاتحاد بالله ، تتجرد النفس من شواغل الحس ، وتستعيد
علمها القديم ، علماً دونه كل علم بشري . وما هذا بالغريب . الا ترى
النفس ، وقد حررها النوم من قيود المحسوس ، تنقل لك اسراراً من
عالم الغيب ؟ فلم لا يستطيع الصوفي في يقظته ، وقد اتحد بالله وغاب عن

كل محسوس ، ان يعلن لك اسرار علمه القديم ، بعد ان مثل لديه الغابر
والآتي ، وتساوت لديه الابعاد ، وبلغ ذروة الهدى ؟

وما العلم بالغيب سوى نوع من انواع الكرامات ، ومظهر من مظاهر
القوة النفسية . هي النفس اذا تجردت من هواها ، وتعت من اميالها ،
تضاعفت قواها ، واستطاعت ما استطاعه قبلها الانبياء ، ما استطاعه
موسى و ابراهيم وعيسى واحمد ، فسخرت الطبيعة ، وشفت المرضى ،
واقامت الموتى ، ودعت الى الهدى .

وليس حال الاتحاد مجرد غيبة عن محسوس ، وتحرر من هوى ،
وقدرة على معجز ، ان هي في اوجها الا عودة الى وحدة او فناء في كل .
ان ابن الفارض رأى في سنى الاتحاد ما كان يحسه ابدًا في اعماق
كيانه ، رأى كل وجود فردي ظلاً من ظلال الوجود الكلي ، وكل
جمال محسوس مسحة من بهائه . واذا لم يعدد الكائنات ؟ لم يفرق
ويفصل ؟ الله هو الكائن الوحيد اللامنظور ، وما الكائنات سوى
مظاهره المحسوسة ، صفاتها صفاته ، وافعالها افعاله ، فحتم يقف عندها
قصور النظر وضعيفو الروح ؟ اما هو ، وقد وليح ابواب الملكوت ،
فلن يفرق بين خالق ومخلوق ، ولن يميز بين نفسه وربّه ، بل توحد لديه
الوجود ، وتلاشت الاشخاص والفروق .

كل جمال جمال الله ، وكل عاشق عشق الله ، وكل حب لو يعلمون
نقي . روح الصوفي نفحة من آله ، هوت وعادت ، واذا هي والله واحد ،
تعلم ما يعلم ، وتعمل ما يعمل ، عنها صدر الوجود ، وبها هام العشاق ،
ولها صلى المتعبدون ، وفيها توحدت الالهة واستوى الناس في الاديان ! . . .
ولكن ما هذا ، أهذي ام حكمة ، اكفر ام تقى ؟ وما عسى
الفقهاء يحكمون ؟

ما هذا الحب الذي يستبيح كل جميل ؟ ما هذا الاتحاد بالله الذي يوحد الكثير ، ويرفع الفروق ، ويلاشي الطاعات ؟ ان هذا الاباحة هوى ، وطرح فروض ، وكفر ذميم ! ان هذا الاحول يرفضه العقل ، ويجرمه الاسلام ، ويعاقب السلطان اهله !..

هذه تهات وجهها بعض الفقهاء الى ابن الفارض وذموه ، ودفعها بعضهم وقصدوه . اما هو فحاول دفع التهمة ، وصيانة السمعة ، فاشاد بقداسته حياته ، واستقامة اسلامه ، نافياً كل ريبة ، وعمد الى الامثال والقرآن يوضح رأياً ، ويدعم عقيدة.

ان الله يتحد بالصوفي اتحاداً وثيقاً ، فيتكلم بلسانه ، ويعمل باعضائه ، فتوهم العبد عاملاً ، وما عمل الا الله . لقد ظهر جبريل للنبي بصورة رجل اسمه دحية ، فكان النبي يرى جبريل والحاضرون يظنونهم دحية ، فلم لا يكون ظهور الله في الصوفي ظهور جبريل في دحية ؟ ثم قد تصرع الجن امرأة ، وتتكلم على لسانها بلغة غير لغتها ، فيخال الحاضرون المرأة متكلمة لا الجن ، فلم لا يعمل الله في الصوفي ما تعمل الجن في امرأة صرعتها ؟ ان كلا المثلين يثبت اتحاداً بين الله والصوفي يجعل الله عاملاً في الحقيقة ، والصوفي في الحس والظاهر ، ومثل هذا الاتحاد لا ينفي الاثنينية ، ويعني وحدة الوجود ، بل يعطل العبد من كل عمل بين يدي خالقه ومحبيه.

ثم ما ينقر الفقهاء من اثبات هذا الاتحاد ؟ ألم يكن المعراج النبوي شكلاً من اشكاله ، ومثالاً اعلى يطمح اليه المختارون ؟ اما دنا النبي من الله فكان منه على قاب قوسين او ادنى ، واره الله ما لم يره موسى ، جمال وجهه وكامل علمه ؟ فهل من حرج اذا اقتفى الناس خطى النبي ، وامنوا بالوحي ؟

هذه ادلة حاول بها ابن الفارض دفع تهمة وحدة الوجود ، وسلامة

الايان والاخلاق . وهذه المحاولة ، وان لم تنف كل وحدة ، فهي تراخ في العقيدة ، ونقض لايات كهنه :

فوصفي ، اذ لم تدع بانين ، وصفها ، وهيئتها ، اذ واحد نحن ، هيئتي وما زلت اياها ، واياي لم تزل ولا فرق ، بل ذاتي لذاتي احبت ونحن اذ نقول هذا تعرض لنا فكرة تلتطف كثيراً من تحامل الناس على من اتهمهم بوحدة الوجود ، بل من كل تحامل . اننا لسنا نرى في اقوال الصوفيين سوى اغراق في اللفظ ، وطريقة من طرق الاقتناع ، ارادوا بها افهامنا صلاتنا الوثيقة بالله ، وتعلق الكون بقدرته ، اما القول بالوحدة المطلقة — كالقول بالجبر — فكلام خالص لم يعتقد به بشر ، او وهم عارض يبده الواقع . ان التفاوت كبير بين قولنا ونياتنا ، وبين نياتنا وعملنا ، فنحن نقول اضعاف ما ننوي ، وننوي اضعاف ما نعمل . فوحدة ابن الفارض — بل كل وحدة — اغراق في اللفظ اكثر مما هي عقيدة في العقل ، وشهوة في الروح اكثر مما هي هدف عملي ، فان توقفت على الالفاظ شجبت ابن الفارض وكفرته ، وان تجاوزت اللفظ رأيت شاعراً تضايق الحواجز احساسه فيتوق الى الافلات ، ورأيت متعبداً هائماً يود الفناء في محبوبه شأن كل المتعبدين الهائمين .

ان ابن الفارض كان معتدل العقيدة ، قويم العمل ، سليم الاخلاق ، مها اوهمت ابياته ، ونتائجها المنطقية ، ومتى خضعت الارواح للمنطق وتقيدت بنتائجها ؟

وان بين ابن الفارض وافلاطون نسباً روحياً ، وبين عقيدتيهما شبهاً غير خفي . علم افلاطون ان النفس هبطت من عالم مثالي كامل لتبقى فترة في عالم الحس ، ثم تعود الى عالمها الكامل . ورأى ابن الفارض ان الروح شربت يوم الميثاق عهد الولاء الازلي ، ثم اتت هذا العالم غريبة

تحن الى غابر ، وسجينة تفك قيود الهوى ، عساها تعود الى ولاء الوطن
الاول.

هي المياه في الساقية تجري هادئة صافية الى ان تصطدم بالصخرة
فتضطرب ويلونها الجباب ، ثم تعود تجري هادئة صافية.

وانما لفكرة شائعة في تاريخ الانسانية ان نفترض للنفس عهدين
 سعيدين يفصلهما عهد جهاد شقي.

فهل تكون ذكرى نعيم فقدناه ، ورجاء نعيم ؟



مختارات من شعره

الخمرة

شربنا على ذكر الحبيب ^{الله} مُدَامَةً
 فان ذُكِرْتَ في الحلي، اصبح اهلـه
 وان خطرت يوماً على خاطر امرئ
 ولو نضحوا منها ثرى قبر مَيّت
 ولو طرحوا في فيّ حائط كرمها
 ولو قربوا من حانها مُقْعَدًا مشى
 ولو عيقت في الشرق انفاس طيها
 ولو خُضِبَتْ من كاسها كف لامس
 ولو جُلِيت سِرًّا على اكه غدا
 ولو ان ركبًا يَمَمُوا تُرْبَ ارضها
 يقولون لي صفها، فانت بوصفها
 صفاء ولا ماء، واطف ولا هواء
 وقالوا شربت الاثم، كلا وانما
 هنيئًا لاهل الدير كم سَكروا بها
 وعندي منها نشوة قبل نشأتني
 على نفسه فلييك من ضاع عمره

سكرنا بها، من قبل ان يُثْلِقَ الكرم ^{عجـه}
 نشاوى، ولا عار عليهم ولا اثم
 اقامت به الافراح وارتحل الهم
 لعادت اليه الروح، وانتعش الجسم
 عليلًا، وقد اشفى، لفارقه الشقم
 وتنطق من ذكرى مذاقتها البكم
 وفي الغرب مزكوم، لعاد له الشم
 لما ضل في نيل، وفي يده النجم
 بصيرًا، ومن راووقها تسمع الصم
 وفي الركب ملسوع، لما ضره السم
 خير، اجل عندي باوصافها علم
 ونور ولا نار، وروح ولا جسيم ^١
 شربت التي في تركها عندي الاثم ^{العواء} ^٢
 وما شربوا منها، ولكنهم هموا ^{الافـ}
 معي ابدًا تبقي، وان بلي العظم
 وليس له فيها نصيب ولا سهم

(١) هي خمرة الحب الالهي التي شربها المختارون يوم الميثاق

(٢) اي انها ليست من العناصر الاربعة، الماء والهواء والنار والتراب

النائبة الكبرى

او

نظم السلوك

بلغ نائبة ابن الفارض ٧٦٠ بيتاً . وقد اخترنا لك منها
أم مقاطعها ، مظهرين جهداً التأليف الشائع فيها .

١ - ألم الحب الوفي

١ سَقَتْنِي حَمِيماً الحُب راحَةً مَقْلَتِي وكأسي حَمِيماً مَنْ عَنِ الحُسْنِ جَلَّتْ
فَاوْهَمْتُ صُحْبِي أَنْ شَرِبَ شَرَابِهِمْ بِهِ سُرَّ سُرِّي ، فِي انْتِشَائِي بِنَظَرَةٍ
وَبِالْحَدَقِ اسْتَفْنَيْتُ عَنْ قَدْحِي ، وَمَنْ شَمَائِلِهَا ، لَا مِنْ شَمُولِي ، نَشَوْتِي^(١)
وَقُلْتُ ، وَحَالِي بِالصَّبَابَةِ شَاهِدٌ ، وَوَجَدِي بِهَا مَا حَيٌّ ، وَالْفَقْدُ مُسَبِّتِي^(٢) :
هِيَ ، قَبْلَ يُفْنِي الحُبُّ مَنِي بَقِيَّةَ أَرَاكَ بِهَا ، لِي نَظَرَةُ الْمُتَلَفَّتِ
وَمَنِي عَلَى سَمْعِي بِلَنْ ، أَنْ مَنَعْتَ أَنْ أَرَاكَ ، فَمَنْ قَبْلِي لَعِيرِي لَذَتْ^(٣) .
فَلَوْ كَشَفَ الْعُودَ بِي ، وَتَحَقَّقُوا مِنْ اللُّوحِ مَا مَنِي الصَّبَابَةُ ابْقَتْ ،
سَلَّمَا شَاهَدْتَ مَنِي بِصَاثِرِهِمْ سَوَى تَحَلَّلِ رُوحٍ بَيْنَ اثْوَابٍ مَيَّتِ
وَلَمْ أَحْكِ فِي حَمِيمِكَ حَالِي تَبَرُّماً بِهَا ، لَا ضَرَابٍ ، بَلْ لَتَنْفِيسٍ كُرْبَتِي
وَيُحْسِنُ أَظْهَارُ التَّجَلُّدِ لِلْعَدَى وَيَقْبِجُ غَيْرُ الْعِزِّ عِنْدَ الْإِجَابَةِ
وَكُلُّ أَذَى فِي الحُبِّ مِنْكَ إِذَا بَدَا جَعَلْتَ لَهُ شُكْرِي مَكَانَ شَكْرِي
وَمَنْ يَتَجَرَّشُ بِالْجَمَالِ إِلَى الرَّدَى رَأَى نَفْسَهُ مِنْ أَنْفَسِ الْعَيْشِ رُدَّتِ
وَمَا ظَفَرْتَ بِالْوُدِّ رُوحَ مَرَاةٍ ، وَلَا بِالْوَلَا نَفْسُ صَفَا الْعَيْشِ وَدَّتِ

(١) سكر الشاعر بخمرة الحب الالهي ، لا بخمرة الكرمية .

(٢) الوجد : حالة يغيب معها كل محسوس ، والوجود الذاتي نفسه ، فكأن لا
موجود سوى الله . الفقد : زوال الوجد ، فالشعور بالوجود الشخصي .

(٣) مَنِي . . . بِلَنْ : قولي « لَنْ تَرَانِي » كما قلت لموئى عندما طلب رؤية الله ،
فان مباح كلامك ، عند تعذر الرؤيا ، لذيد .

ولي نفس حُر لو بذلت لها علي
وعن مذهبي في الحب ما لي مذهب
ومحكم عهد ، لم يخامرہ بيننا
وأخذك ميثاق الولا، حيث لم أبن
وسابق عهد ، لم يخل مذ عهديته ،
وسر جمال ، عنك كل ملاحه
٧٦ لانت مئي قلبي ، وغاية بغيتي
تسليك ما فوق المني ما تسلت
وان ملت يوماً عنه فارقت ملتي .
تحيل نسخ ، وهو خير أليه^(١) ،
بظهر لبس النفس في في طينتي^(٢) ،
ولاحق عقد جل عن حل فترة^(٣) ،
به ظهرت في العالمين وتمت ،
واقصى مرادي ، واختياري ، وخيرتي .

٢ - اتهام الحبيبة

٨٤ قالت : هوى غيري . قصدت ، ودونه اقتصدت ، عيماً عن سواء محبتي^(١)
واين السهى من اكهم ، عن مراده سها عهما ؟ اكن امانيك غرت^(٢)
فقتت مقاماً ، خط قدرك دونه ، على قدم عن حظها ما تحطت^(٣)
ورمت مراماً دونه كم تطاولت باعناقها قوم اليه فجذت^(٤)

(١) ومحكم عهد : يقسم بحبه الثابت لها .

(٢) ميثاق الولا : هو عهد الحب الذي اخذه الله على مختاريه . قبل خلقهم . ان
الله احضر يوماً امامه كل الاجيال التي ستلد من آدم ، واخذ عليهم قسماً بطاعته ،
وعهداً بحبه . (انظر الدرس ص ٤٣) . مظهر لبس النفس : مظهر النفس وهي
غارقة في ظلمة الاجساد ، ملتبسة على الناظر . الطينة : البدن .

(٣) العهد السابق : العهد الذي اخذه الله على خلقه يوم اسلموا . حل :
حلول . فترة : ضعف .

(٤) هو غيري : هوى نفسك كما يظهر من البيت ٩٨ . دونه اقتصدت :
لم نصل الى حيي .

(٥) السهى : نجم . اكهم : اعمى . العمه : الضلال . امانيك غرت :
اميا لك تهدعك وتكذب عليك .

(٦) قتت مقاماً : هو مقام الحب الذي تقصر دونه قدماء .

(٧) جذت : قُطعت .

وَجِئْتُ بِوَجْهِ اَبِيضٍ ، غَيْرِ مُسْقَطٍ
وَنَجُّ سَبِيلِي وَاضِحٌ لِمَنْ اهْتَدَى
وَقَدْ اَنْ اَنْ اَبْدِي هَوَاكَ ، وَمَنْ بِهِ
٩٨ حَلِيفٌ غَرَامُ اَنْتَ ، لَكِنْ بِنَفْسِهِ ،
فَلَمْ تَهْوِنِي مَا لَمْ تَكُنْ فِيَّ فَانِيَاً
١٠٠ اَفْدَعْ عَنْكَ دَعْوَى الْحُبِّ ، وَادْعُ لغيره
١٠١ وَجَانِبَ جَنَابِ الْوَصْلِ هِيَهَاتَ لَمْ يَكُنْ
لِجَاهِكَ فِي دَارِكَ ، خَاطِبَ صَفْوَتِي ^{١)}
وَاَكْتَنَاهُ الْاَهْوَاءَ عَمَّتْ فَاعْمَتِ
ضَنَّاكَ ، بَمَا يَنْفِي ادْعَاكَ مَحَبَّتِي
وَإِبْقَاكَ وَصْفَاً مِنْكَ بَعْضُ ادْلَتِي
وَلَمْ تَقْنِ مَا لَا تُجْتَلَى فِيكَ صَوْرَتِي ^{٢)}
فَوَادِّكَ ، وَادْفَعْ عَنْكَ غَيْكَ بِالْتِي ^{٣)}
وَهَا اَنْتَ حَيٌّ ، اَنْ تَكُنْ صَادِقًا مِتَّ !

٣ - دَفْعُ التَّهْمَةِ

١٠٣ اَفَقُلْتُ لَهَا رُوحِي لَدَيْكَ وَقَبْضُهَا
وَمَاذَا عَسَى عَنِّي يَقَالُ سِوَى قَضَى
وَإِنِّي اِلَى التَّهْدِيدِ بِالْمَوْتِ رَاكِنٌ ،
وَهَا اَنَا مُسْتَدْعٍ قَضَاكَ ، وَمَا بِهِ
وَمِنْ دَرَجَاتِ الْفَرِّ اَمْسَيْتُ مُخْلَدًا
١٢٥ فَلَا بَابَ لِي يُغَشَى وَلَا جَاهٌ يُرْتَجَى
كَأَن لَّمْ اَكُنْ فِيهِمْ خَطِيرًا ، وَلَمْ اَزَلْ
وَكُلُّ مَقَامٍ عَنِ سُلُوكٍ قَطْعَةٌ
٢٠٥ فَصُرْتُ حَبِيْبًا بَلْ مُجْبَأً لِنَفْسِهِ
اَلَيْكَ ، وَمَنْ لِي اِنْ تَكُونُ بَقْبَضَتِي !
فَلَا نْ هَوَى؟ مَنْ لِي بَذَا وَهُوَ بَغِيَّتِي !
وَمَنْ هُوَ اَرَاكَ غَيْرِي هُدَّتْ ^{٤)}
رِضَاكَ ، وَلَا اخْتَارَ تَاخِيرَ مُدَّتِي ^{٥)}
اِلَى دَرَكَاتِ الذُّلِّ ، مِنْ بَعْدِ نُحُوْتِي
وَلَا جَارَ لِي يُجِمِّي لِفَقْدِ حِمِيَّتِي
لَدَيْهِمْ حَقِيرًا ، فِي رِخَاءٍ وَشَدَّةٍ
عِبُودِيَّةٍ حَقَّقْتُهَا بِعِبُودَةٍ ^{٦)}
وَلَيْسَ كَقَوْلٍ مَرَّةً : نَفْسِي حَبِيَّتِي ^{٧)}

(١) بوجه ابيض : مع الجاه والغنى .

(٢) ولم تقن . . . لا تحبني ما لم تر فيك صورتني ، وترى صورتك .

(٣) بالتي : بالتي هي احسن المحصل اي بالصدق .

(٤) هو يرضى بالموت الذي تطلبه منه برهاناً على حبه في البيت ١٠١ .

(٥) قضاك : حكمك علي بالموت .

(٦) العبودية والعبودية : صاحب العبودية يترك خيرات الارض لخيرات الآخرة
وصاحب العبودية يترك خيرات الآخرة نفسها لاجل المحبوبة .

(٧) بعد سلوك طريق الحب ، والوصول الى الاتحاد بالمحبوبة ، احبتي واحببتها

٢٠٦ خرجتُ بها عني إليها ، فلم اعد
 لها وها انا ابدي في التهادي مبدأي ،
 جلتُ ، في تجليها ، الوجود لناظري
 وطاح وجودي في شهودي وبنت عن
 فوصفي ، اذ لم تدع باثنين ، وصفها
 فان دُعيت كنتُ الحبيب وان اكن
 فقد رُفعت تاء المخاطب بيننا
 فان لم يجوز رؤية اثنين واحداً
 ٢٢٠ سألوا اشارات عليك خفية
 واثبت بالبرهان قولي ضارباً
 بمتبوعة يُنسبك في الصرع غيرها
 ومن لغة تبدو بغير لسانها ،
 ٢٢٥ وفي العلم حقاً ان مبدئي غريب ما
 فلو واحداً امسيت اصبحت واحداً

الي ، ومثلي لا يقول برجعة
 وانهي انتهائي في تواضع رفعتي^(١) :
 ففي كل مرئي اراها برؤية
 وجود شهودي ، ماحياً غير مثبت^(٢)
 وهيئتها ، اذ واحد نحن ، هيئتي
 منادى اجابت من دعائي ولبت
 وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي
 حباك ، ولم يُثبت لبعث تثبت ،
 بها ككلمات لديك جليلة ،
 مثال مُحقِّق ، والحقيقة عُهدتي ،
 على فها ، في مسها حيث جُنت ،
 عليه براهين الادلة صحت ،
 سمعت سواها ، وهي في الحس ابدت^(٣)
 منازل ما قلته عن حقيقة^(٤)

وكانني احب نفسي ، لا كما اتهمتني من قبل (بيت ٩٨) باني احب نفسي دونها .
 (١) اخبرك اولاً عن مقام الاتحاد ، ثم احدثك عن مقام التفرقة الذي انتهي
 اليه تواضعاً .

(٢) غبت عن وجودي اذ شهدت المحبوبة ، ثم غبت عن الشهود نفسه ، فلم اعد
 امين بين شاهد ومشهود .

(٣) اذا احال لنفك ان اكون والحبيبة واحداً ، فاضرب لك مثلاً يجوز
 لك ذلك . تصور امرأة متبوعة صرعتها الجن ونكلمت على لسانها بلغة غير لغتها ،
 فالمرأة متكلمة في الظاهر ، والجن في الحقيقة . وكذلك شأن العبد مع ربه في حال
 الاتحاد ، العبد يعمل في الظاهر ، والله في الحقيقة .

(٤) لو اصبحت واحداً والله ، ونفيت التفرقة ، لخبرت عن طريق المنازل ،
 اي الاتحاد بالله ، صحة دعواي .

٢٣٦ فيجاهد تشاهد فيك منك وراء ما
 ٢٤٠ وفارق ضلال الفرق فالجمع منتج
 وصرح باطلاق الجمال، ولا تقل
 فكل مليح حسنه من جمالها
 بها قيس لبني هام بل كل عاشق
 فكل صبا منهم الى وصف لبسها
 ٢٤٥ وما ذاك الا ان بدت بتظاهر
 ففي النشاة الاولى تراى لادم
 فهام بها كيما يكون بها ابا
 ٢٥٠ وما برحت تبدو وتختفى لعلقة
 وتظهر للعشاق في كل مظهر
 كذلك، بحكم الاتحاد بحسنها،
 بدوت لها في كل صب مقيم
 ففي مرة قيسا، واخرى كثيرا،
 وما زلت اياها واياي لم تزل
 ولكن لصد الضد عن طعنه على
 رجعت لاعمال العبادة عادة،
 وصفت سكونا عن وجود سكونية^{١)}
 هدى فرقة بالاتحاد تحدث^{٢)}
 بتقييده ميلا لزخرف زينة^{٣)}
 معار له، بل حسن كل مليحة
 كجنون ليلي او كثير غرة
 بصورة حسن لاح في حسن صورة^{٤)}
 فظنوا سواها، وهي فيها تجلت
 بمظهر حوا، قبل حكم الامومة
 ويظهر بالزوجين حكم البنوة
 على حسب الاوقات في كل حقبة
 من اللبس في اشكال حسن بديعة^{٥)}
 كما لي بدت في غيرها وترتير،
 باي بديع حسنه وباية
 وآونة ابدو جميل بثينة
 ولا فرق، بل ذاتي لذاتي احبت
 علا اولياء المتجدين بنجدي^{٦)}
 واعدت احوال «الارادة» عدي

(١) جاهد في سبيل الاتحاد، فتجد فيه هدوءا ناتجا عن استقرارك في الله.

(٢) تحدث : تنافست.

(٣) الجمال واحد، هو جمال الله، فلا تجزئه مغرورا بمظاهره المحسوسة الخالبة.

(٤) لبسها بصورة حسن. ظهورها ظهورا غامضا من خلال الالوان المحسوسة.

(٥) اللبس : مظهر الغموض والاشكال الناتج عن ظلمة الاجساد.

(٦) رفعا لطن المشايخ في حق الصوفيين، القائلين بالاتحاد، المكتفين بالحب

عن الاعمال الخارجية، عاد الى الطاعات، واعمال العبادة. نجد : اعان. نجدة :
 بأس.

وَصُمْتُ نَهَارِي رَغْبَةً فِي مَثْوَبَةٍ ،
وَبَنَيْتُ عَنِ الْوَطَانِ هِجْرَانٍ قَاطِعٍ ،
وَانْفَقْتُ مِنْ يَسْرِ الْقَنَاعَةِ ، رَاضِيًا
٢٧٥ وَهَذَبْتُ نَفْسِي بِالرِّيَاضَةِ ، ذَاهِبًا
٣٨١ صَرَفْتُ لَهَا كُلِّي عَلَى يَدِ حَسَنَتِهَا ،
٤١٠ إِذَا لَاحَ مَعْنَى الْحَسَنِ فِي أَيِّ صُورَةٍ ،
يُشَاهِدُهَا فَكِرِي بِطَرَفِ تَخِيلِي ،
فَأَعْجَبَ مِنْ سَكْرِي بغيرِ مَدَامَةٍ ،
٤١٤ فَيَرْقُصُ قَلْبِي ، وَارْتَعَاشُ مَقَاصِلِي
٤٣٠ وَيَنْبَسِكُ عَنْ شَأْنِي الْوَلِيدُ ، وَأَنْ نَشَأَ
إِذَا أَنْ مِنْ شَدِّ الْقَمَاطِ ، وَحَنٍّ فِي
يُنَاغِي فَيُلْغِي كُلَّ كُلِّ أَصَابِهِ ،
وَيَنْسِيهِ مَرَّ الْحُطْبِ حُلُوقَ خَطَابِهِ ،
وَيَعْرَبُ عَنْ حَالِ السَّمَاعِ بِجَالِهِ ،
إِذَا هَامَ شَوْقًا بِالْمُنَاغِي ، وَهُمْ أَنْ
٤٣٦ يَسْكُنُ بِالتَّحْرِيكِ ، وَهُوَ بِمَدَمِهِ ،

وَاحْيَيْتُ لَيْلِي رَهْبَةً مِنْ عَقُوبَةٍ
مُوَاصِلَةٍ الْإِخْوَانِ ، وَاخْتَرْتُ غَزْلِي
مِنْ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا بِإِسْرٍ بُلْغَةٍ
إِلَى كَشْفِ مَا حَجَبَ الْعَوَائِدُ غَطَّتْ^(١)
فَضَاعَفَ لِي إِحْسَانُهَا كُلَّ وَصْلَةٍ
وَنَاحَ مَعْنَى الْحُزْنِ فِي آيِ سُورَةٍ^(٢)
وَيَسْمَعُهَا ذِكْرِي بِمَسْمَعِ فَطْنَتِي
وَاطْرَبَ فِي سِرِّي ، وَمَنِي طَرَبَتِي
يُصْفِقُ كَالشَّادِي ، وَرُوحِي قَيْنَتِي
بَلِيدًا ، بِالْهَامِ كُوحِي وَفُطْنَةٍ
نَشَاطٍ إِلَى تَفْرِيجِ افِرَاطِ كُرْبَةٍ ،
وَيُصْغِي لِمَنْ نَاغَاهُ كَالْمُتَنَصِّتِ ،
وَيُذَكِّرُهُ نَحْوِي عَهْدٍ قَدِيمَةٍ ،
فَيُثَبِّتُ الرِّقْصَ انْتِفَاءً النَقِيصَةِ
يُطِيرُ إِلَى أَوْطَانِهِ الْإُولِيَةِ ،
إِذَا مَا لَهُ أَيْدِي مَرِييَةٍ هَزَّتْ^(٣)

(١) يمارس الرياضة ليصل الى كشف الحق .

(٢) من هذا البيت الى آخر المقطع يتكلم عن السماع . اذا رأى صورة جميلة ،
وسمع غناءً بآيات القرآن ، دخل في الوجد ، وبدأت المشاهدة .

(٣) في هذه الايات ، يشبه نفسه في حال السماع بالوليد : ان للطفل ، وهو
لما يعقل ، الهاماً شبيهاً بوحى الانبياء او فطنة الحكماء ، وانه اذا شدَّ قَمَاطُهُ وَاكْرَبَهُ ،
ثم سمع الغناء ، ذكَّره هذا الغناء بعهد قديم ، بمسامرة الله له يوم الميثاق ، فتحرك
طرباً ، وهم بالعودة الى الوطن الاول . ويهزُّ له مَرِييَةٍ فيسكن . وهكذا الصوفي
اذا سمع الغناء ، ذكر مناجاة الله له ، وحنَّ الى وطنه الاول ، ولكن الرقص
البريء - كهنز المرئي - يسكن روحه النازعة الى الهما .

٥ - كرامات اهل الفناء

٤٨٨ ومن لم يرث عني الكمال فناقص^١ ،
 ٥٨٩ فاتلو علوم العالمين بلفظة^٢ ،
 واسمع اصوات الدعاة وسائر^٣
 أضر ما قد عزَّ للبعد حملهُ ،
 وانشق ارواح الجنان ، وعرف ما^٤
 واستعرض الآفاق نحوي بِنُظرة^٥
 ومني لو قامت بئمة لطيفة^٦
 ٦٠٠ هي النفس ان القت هواها تضاعفت
 بذلك علا الطوفان نوح^٧ ، وقد نجا
 ومن يده موسى عصاه تلقفت^٨
 وفي آل اسرائيل مائدة من السبا^٩
 ٦١٥ وجاء باسرار الخمع مفيضها^{١٠}
 ٦٥٥ وضربي لك الامثال مني منة^{١١}
 ٦٦٤ فقل لي من القى اليك علومه^{١٢}
 وما كنت تدري قبل يومك ما جرى^{١٣}
 على عقبيه ناكص^{١٤} في العقوبة
 واجلو علي العالمين بلحظة^{١٥}
 اللغات ، بوقت دون مقدار لمحة^{١٦}
 ولم يرتد طرقي الي^{١٧} بغمضة^{١٨}
 يصافح اذبال الرياح ، بنسمة^{١٩}
 واخترق السبع الطباقي بِنُظرة^{٢٠}
 لرُدت اليه نفسه وأعيدت^{٢١}
 قواها ، واعطت فعلها كل ذرة^{٢٢}
 به من نجا من قومه في السفينة^{٢٣}
 من السجرا هو الأعلى النفس شقت^{٢٤}
 ع لعلني انزلت ثم مدت^{٢٥}
 علينا ، لهم ختما ، على حين فترة^{٢٦}
 عليك ، بشأني مرة بعد مرة^{٢٧}
 وقد ركبت منك الحواس بنفوة^{٢٨}
 بامسك ، او ما سوف يجري بعُدوة^{٢٩}

(١) يتكلم عن كراماته : تلو علوم العالمين بلفظة ، ويرى ما في العوالم بلحظة ،
 ويسمع صوت كل داع وبأي لغة بلمحة ، ويحضر ما فصلته المسافة بطرفة عين ، ويشم
 كل رائحة زكية بنسمة واحدة ، ويستعرض الارض والسماء بسرعة ، ويقم الموتى .
 (٢) تقوى النفس بالتجرد عن الاهواء ، وتصبح كل ذرة قادرة على اتيان
 الخوارق .

(٣) تلقفت : تناولت . شقت : صعبت .

(٤) جاء محمد ، خاتمة الانبياء ، باسرار جميعهم .

(٥) يضرب مثلاً بفهمنا به كيف تستطيع النفس بتجردها من علائق الحس ان
 تأتي بغرائب الاعمال والعلوم .

فأصبحت ذا علمٍ باخبار من مضى ، واسرارٍ من يأتي ، مُدلاً بجزيرة^(١)
 التحسب ما جارك في سنة الكرى سواك ، بأنواع العلوم الجليلة؟^(٢)
 وما هي الا النفس ، عند اشتغالها بعالمها عن مظهر البشرية ؛
 تجت لها بالغيب في شكل عالمٍ هداها الى فهم المعاني الغريبة^(٣)
 ولو انها قبل المنام تجردت لشاهدتها مثلي بعينٍ صحيحة^(٤)
 وتجريدها العادي أثبت أولاً تجردها الثاني المعادي فاثبت^(٥)
 ولا تكُ بمن طيشته دروسه بحيث استقلت عقله واستقرت
 فثم وراء النقل علمٌ يدقُ عن مدارك غايات العقول السليمة^(٦)

٦ - النبي مثال الفنانين

٧٥٠ ولست مَلموماً ان أثبت مواهي وامنح اتباعي جزيل عطيتي
 ولي من مفيض الجمع ، عند سلامه عليّ « بأو ادنى » اشارةً نسبة^(٧)

- (١) في النوم تتصل النفس بعالم الغيب وتطلعك على اسراره .
 - (٢) انظن شخصاً اخر اطالعك على ما عرفته في المنام ؟
 - (٣) لا ! انها النفس انصرفت عن المظاهر البشرية الى عالمها الروحي ، فتجلت لذاخها عالمة بكل شيء .
 - (٤) لو تجردت النفس في اليقظة من عوائق الجسد لشاهدت ما تشاهد في المنام .
 - (٥) وتجرد النفس من علائق الجسد واتصالها بعالم الروح برهاناً على خلودها ومعادها .
 - (٦) ما تراه النفس في حال الانعام الصوفي اجل من كل علم عقلي او شرعي .
 - (٧) مفيض الجمع : النبي محمد ، وهو في اعلى مراتب من بلغوا الجمع . أو ادنى : هو مقام بلغة النبي من الله ، في معراجة المعروف : « والنجم اذا هوى » ، ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الاعلى ، ثم دنا فقتلى ، فكان قاب قوسين أو ادنى ، فاوحى الى عبده ما اوحى . . . » (قرآن ٥٣ ، ١ - ١٠) .
- وقد بلغ الشاعر هذا المقام ، فسلم عليه النبي ، وهذه نسبة بين روح النبي وارواح الاولياء المتصوفين .

ومن نوره مشكاة ذاتي اشرقت
علي ، فنارت بي عشايتي كضحتي^١
٧٥٧ وبدري لم يأفل ، وشمي لم تغب ،
وبي تهدي كل الداراي المذيرة .

في نغمة العود

ما بين معترك الاحداق والمهج
ودعت قبل الهوى روحي لما نظرت
لله احفان عين فيك ساهرة
اصبحت فيك كما امسيت مكتئباً
لا كان وجد به الأماق جامدة
عذب بما شئت ، غير البعد عنك ، تجد
وخذ بقية ما ابقيت من رفق
من لي باتلاف روحي في هوى رشاً
تراه ، ان غاب عني ، كل جارحة
في نغمة العود والناي الرخيم ، اذا
وفي مسارح غزلان الحائل في
وفي مساقط انداء النعام على
وفي مساحب اذبال النسيم ، اذا
وفي التثامي تغر الكاس ، مرتشفاً
لم ادر ما غربة الاوطان ودومعي

انا القليل بلا اثم ولا حرج
عينايتي من حسن ذاك المنظر البهج
شوقاً اليك ، وقلب بالغرام شج
ولم اقل جزعاً يا ازمة انفرجي^٢
ولا غرام به الاشواق لم تهيج
اوفي محب بما يرضيك مبتهيج
لاخير في الحب ان ابقى على المهج
حلو الشائل ، بالارواح ممتزج
في كل معنى لطيف ، رائق ، بهج
تألفا بين الحان من الهزج
برد الاصائل والاصباح في البلج
بساط نور من الازهار منتسج
اهدي الي سحيراً اطيب الارج
ريق الدامة في مستزده فرج
وخاطري ، اين كنا ، غير متزعج

صار بعضي كلبي

انتم فروضي ونفلي انتم حديثي وشغلي
يا قبليتي في صلاتي ، اذا وقفت اصلي ،

(١) من نور النبي اشرقت ذاتي ، واصبح ليلي كنهاري .

(٢) الجزع : ضد الصبر .

جمالكم نصبُ عيني اليه وجهت كلي،
وسركم في ضميري، والقلب طورُ التجلي.
آنست في الحي ناراً ليلاً، فبشرت اهلي
قلت : امكثوا ، فلعلي اجد هداي ، علي
دنوت منها فكانت نار المكلم قبلي^(١).
نوديت منها كفاحاً^(٢) ردوا ليالي وصلي
حتى اذا ما تدانى اأ ميقات في جمع شملي،
صارت جبالي دكاً من هية المتجلي
ولاح سر خفي يدريه من كان مثلي
وصرت موسى زماني وصار بعضي كلي !

سائق الاطغان

سائق الاطغان يطوي البيدطي منعماً عرج على كشان طي
وبذات الشيخ عني ، ان مرر ت مجي من غريب الجزع ، حي
وتلطف ، واجر ذكرى عندهم علمهم ان ينظروا عطفاً إلي
قل : تركت الصب فيكم شبحاً ما له مما براه الشوق في
خافياً عن عائذ ، لاح كما لاح في برديه بعد الشرطي
بين اهليه غريباً نازحاً وعلى الاوطان لم يعطفه كي^(٣)
جائحاً ان سيم صبراً عنكم وعليكم جانحاً لم يتأي^(٤)
حائراً في ما اليه امره حائر ، والمرء في المحنة عي

(١) المكلم : موبو.

(٢) كفاحاً : وجهاً لوجه

(٣) لي : مصدر لوى اي عطف

(٤) يتأي : يتوقف

يا أهيلَ الود أني تنكرو
لم يرق لي منزلٌ بعد النقا
ني كهلاً بعد عرفاني فتي
لا ولا مستحسنٌ من بعد مي
وأشوقي لصاحبي وجهها
وظما قلبي لذياك اللّمي !
أحلت جسمي نحولاً ، خصرها
منه حالٌ ، فهو أبهى حلتي
بئس حالٌ بدلت من انسها
وحشةً ، أو من صلاح العيش غي

خففي الوطء ، ففي الحيف ، سلمت ، على غير فؤادٍ لم تطي
كان لي قلبٌ مجرّاء الحمى ضاع مني ، هل له ردٌ علي ؟
ذهب العمر ضياعاً وانتقضى باطلاً اذ لم افز منكم بشي !

يا ليل

غيري على السلوان قادر
لي في الغرام سريرة
وسوي في العشاق غادر
والله اعلم بالسراير
ومُشَبَّه بالغصن قلبي
لا يزال عليه طائر
حلو الحديث ، وانها
خلالوة شقت مرايرا

يا ليل ، ما لك آخر
يا ليل طل ، يا شوق دم
يرجى ، ولا للشوق آخر
اني على الحالين صابر
لي فيك اجر مجاهد
ان صح ان الليل كافر
طرفي وطرف النجم فيك كلاهما ساه وساهر
يهنيك ! بدرك حاضر
يا ليت بدري كان حاضر !

نلك الليالي ...

قف بالديار ، وحي الاربع الدرسا
وان اجنك ليل من توحشها
ونادها فعاها ان تجيب ، عسى
فاسعل من الشوق في ظلماتها قبسا

ياهل درى النفر الغادون عن كلف
فان بكى في قفار خلقتها لججا ،
فدو المحاسن لا تُحصى محاسنه
كم زارني والدجى يربد من حنق
وابتر قلبي قسرا . قلت : مظلمة ا
غرست باللاحظ وردا فوق وجنته
فان ابى ، فالاقاحي منه لي عوض
كم بات طوع يدي والوصل لجمعنا
تلك الليالي ، التي اعددت من عمري
لم يحل للعين شيء بعد بعدهم
ياجنة فارقتها النفس مكرهة ،
يبست جُنجح الليالي يرقب الغلسا
وان تنفس عادت كلها ييسا
وبارع الانس لا أُعَدَم به انسا
والزهر تبسم عن وجه الذي عبسا^١
يا خا كم الحب ، هذا القلب لم حُبسا ؟
حق لطوفي ان يحني الذي غرسا
من عوض الدر عن زهر فاحبسا
في بردتية التقى لا نعرف الدنيا
مع الاحبة ، كانت كلها عرسا
والقلب مذ أنس التذكار ما أنسا
لولا التأسى بدار الخلد ، مت أسى .

انه الغرام هو الحياة ...

زدي بفراط الحب فيك تحيرا
واذا سألتك ان اراك حقيقة
يا قلب انت وعدتني في جهنم
ان الغرام هو الحياة فت به
قل للذين تقدموا قبلي ومن
عني خذوا ، ولي اقتدوا ولي اسمعوا
ولقد خلوت مع الحبيب ، وبيننا
واباح طرفي نظرة أملتُها
فدهشت بين جماله وجلاله
وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى^٢
صبرا ، فحاذر ان تضيق وتضجرا
صبأ ، فحقك ان تموت وتُعذرا
بعدي ، ومن اضحى لاشجاني يرى :
وتحدثوا بصباوتي بين الورى !
سر أرق من النسيم اذا سرى
فغدوت معروفا ، وكنت منكرا
وغدا لسان الحال غني مخبرا

(١) الزهر : النجوم . الذي عبسا : المحبوب .

(٢) هو جواب الله الى موسى : لن تراني !

فادر لحاظك في محاسن وجهه تلقى جميع الحسن فيه مصوراً
لو ان كل الحسن يكمل صورة ورآه ، كان مهلاً ومكبراً

هو الحب !

هو الحب فاسلم بالحشما الهوى سهل
وعش خالياً ، فالجب راحته عنا
ولكن لدي الموت فيه ، صباية ،
نصحتك علماً بالهوى ، والذي ارى
فان شئت ان تحيا سعيداً فت به
احبة قلبي ، والمحبة شافعي
اخذتم فؤادي ، وهو بعضي ، فما الذي
تباله قومي اذ رأوني متيماً
وماذا عسى عني يقال سوى غدا
وقد علموا اني قتيلٌ لحاظها
حديثي قديم في هواها وماله ،
ومالي مثلٌ في غرامي بها كما
جرب حبها مجرى دمي في مفاصلي
فنافس ببذل النفس فيها اخا الهوى
فمن لم يجد في حب نعم بنفسه

فما اختاره مضى به وله عقل
وأوله سقم واخره قتل
حياة ، لمن اهوى علي بها الفضل
مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يملو
شهيداً ، والا فالغرام له اهل !
لديكم ، اذا شتم بها اتصل الجبل
يضركم لو كان عندكم الكل ؟
وقالوا : بن هذا الفتى مسه الجبل ؟
بنعم له شغل ، نعم لي بها شغل !
فان لها في كل جارية نصل
كما علمت ، بعد ، وليس له قبل
غدت فتنة في حسنها ما لها مثل
فاصبح لي عن كل شغل بها شغل
فان قبلتها منك يا حبذا البذل !
ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخل !

قلبي يحدني

قلبي يحدني بانك متلفي
لم اقض حق هوائك ان كنت الذي
روحي فذاك ، عرفت ام لم تعرف !^(١)
لم اقض فيه اسي ، ومثلي من يفي

(١) عرف : حفظ الصنيع ليكافئ عليه في وقته .

ما لي سوى روحي، وباذل روحه
 يا مانعي طيب المنام ، وما نخي
 عطفاً على رمقي وما ابقيت لي
 اخفيت حبكم فاخفاني اسي
 ولقد اقول لمن تحرش بالهوى
 انت القليل باي من احبته
 قل للعذول : اطلت لومي طامعاً
 دع عنك تعنفي وذق طعم الهوى
 برح الحفاة بحب من لوفي الدجي
 لو اسمعوا يعقوب ذكر ملاحه
 وعلى تفنن واصفيه بحسنه ،
 ان زار يوماً ، يا حشاي تقطعي
 ما للزوى ذنب ، ومن اهوى معي

في حب من يهواه ليس بمسرف
 ثوب السقام به ، ووجدي المتلف
 من جسمي المضى وقلبي المدنف
 حتى ، لهجري ، كدت عني اخفي
 عرضت نفسك للبلا فاستهدف
 فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي
 أن الملام عن الهوى مستوقفي
 فاذا عشقت فبعد ذلك عتف
 سفر اللثام ، لقلت يا بدر اخف
 في وجهه ، نسي الجمال اليوسفي
 يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف
 كلفاً به ، او سار يا عين اذرفي
 ان غاب عن انسان عيني فهو في .

لها

ولما تلاقينا عشاء وضمنا
 وملنا كذا شيئاً عن الحلي حيث لا
 فرشت لها خدي وطاء على الأثرى
 فما سمحت نفسي بذلك غيراً
 وبتنا ، كما شاء اقتراحي ، على المنى

سواء سيلي دارها وخيامي
 رقيب ولا واش بزور كلام
 فقات : لك البشري بلثم لثامي !
 على صونها مني ، لغز مرامي
 اري الملك ملكي والزمان غلامي

ايات متفرقة

ته دلالة فانت اهل لذاكا وتحكم ، فالحسن قد اعطاكا

ولك الامر فاقض ما انت قاضٍ فعليَّ الجمال قد ولاكا
ما ثنائي عنك الضنى ، فباذا يا مليحُ ، الدلالُ عني ثناكا ؟



أوميضُ برق بالابرق لاحا ام في ربي نجد ارى مصباحا
ام تلك ليلي العامرية اسفرت ليلاً فصيرت المساء صباحا ؟



خفف السير واتدُّ يا حادي انما انت سائق بفؤادي !



فلاسفة العرب

سلسلة دراسات ومختارات

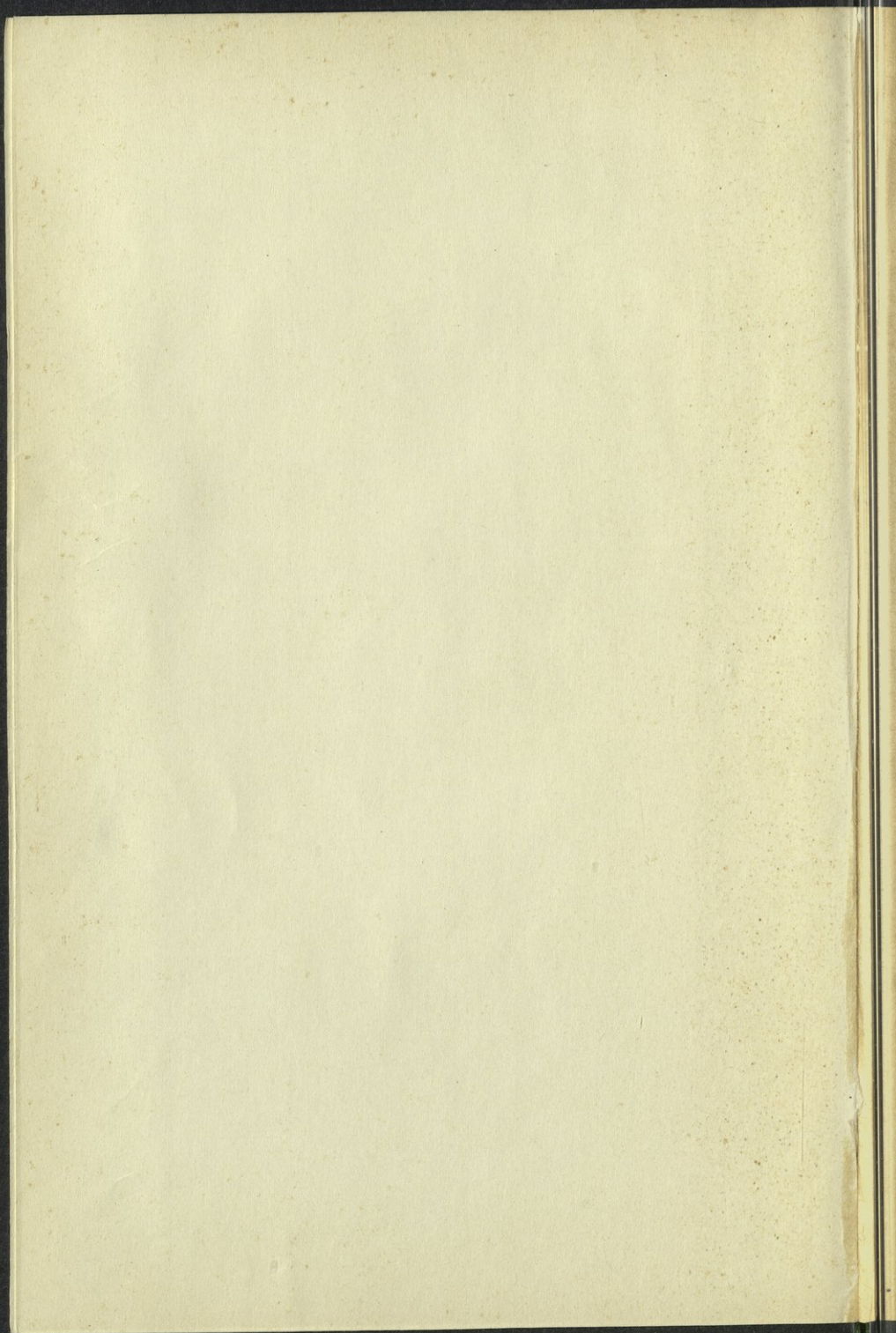
ظهر منها :

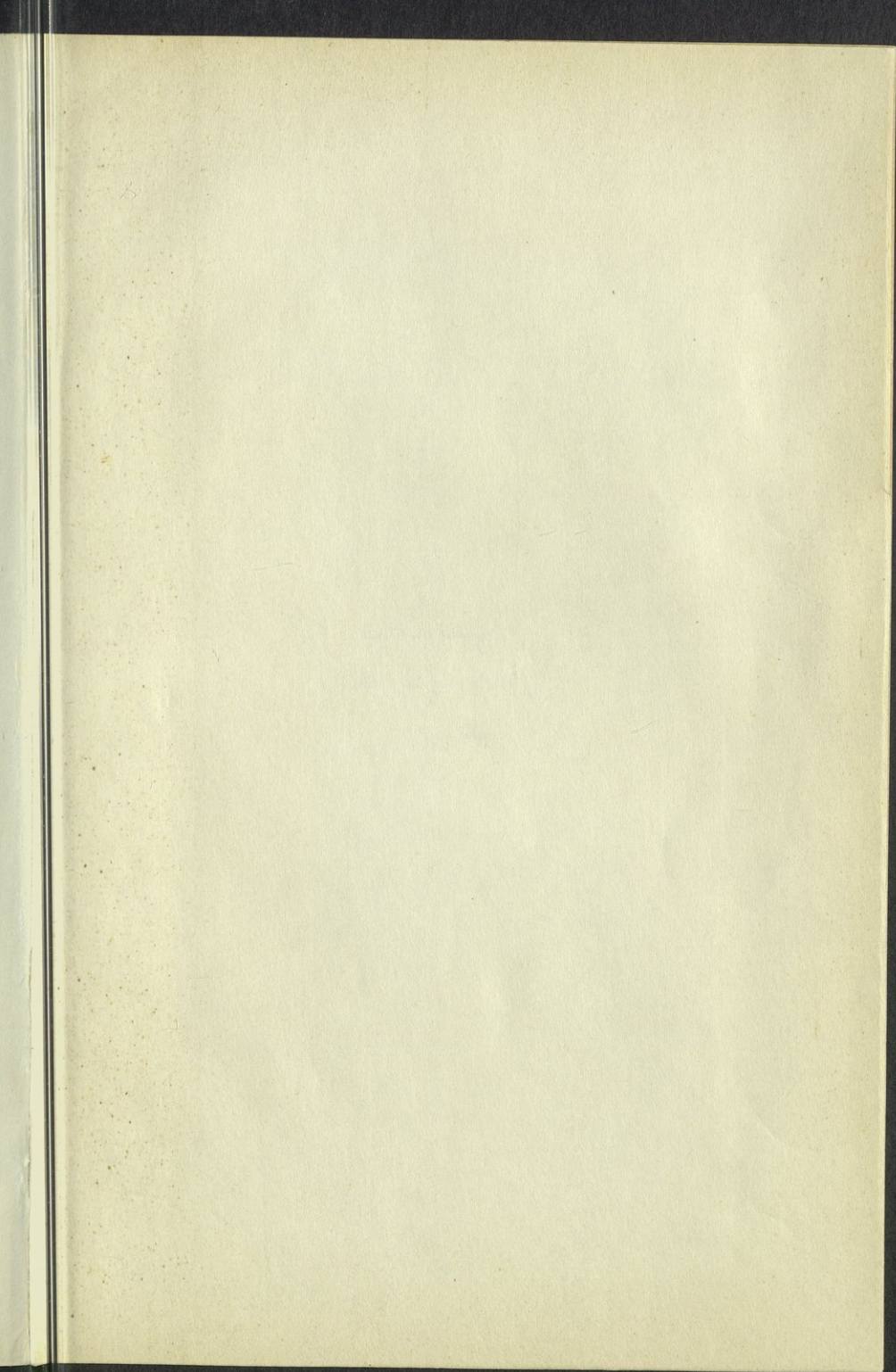
- ١ - ابن الفارض (طبعة ثالثة)
- ٢ - ابو العلاء المعري (طبعة ثانية)
- ٣ - ابن خلدون (طبعة ثانية)
- ٤ - الغزالي : في جزئين (طبعة ثانية)
- ٥ - ابن طفيل (طبعة ثانية)
- ٦ - ابن رشد : في جزئين (طبعة ثانية)
- ٧ - اخوان الصفاء (طبعة ثانية)
- ٨ - الكندي
- ٩ - الفارابي : في جزئين

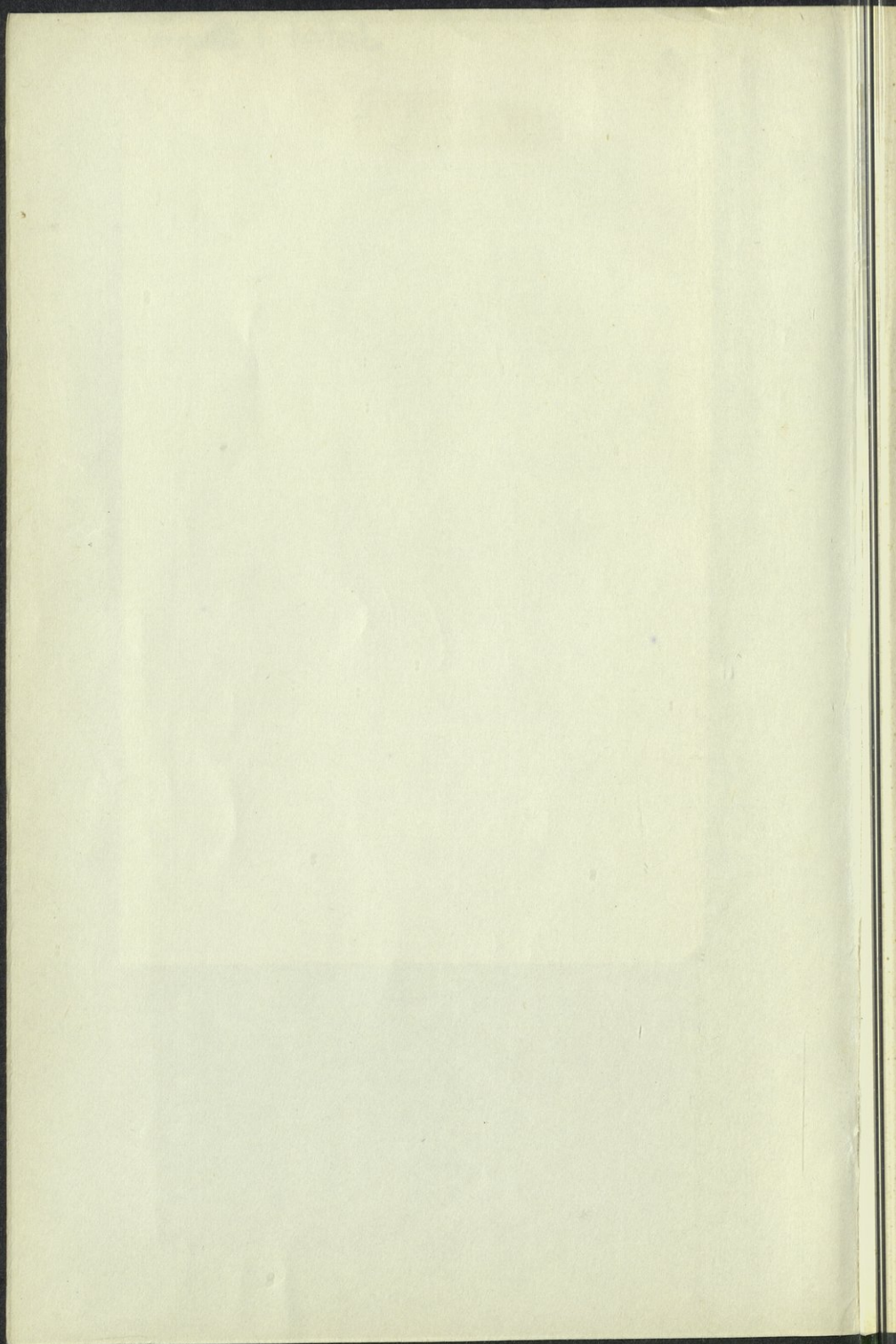
للمؤلف ايضاً :

قربان الاغاني : معرب عن طاغور

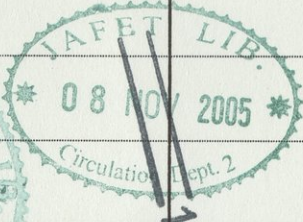
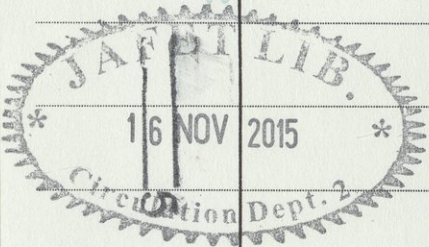
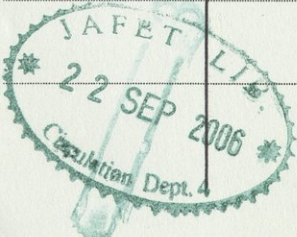
تمّ طبع هذا الكتاب
في الثلاثين من شهر اذار
سنة ١٩٥٥







DATE DUE

892.78:I224YqA:c.1

فمير، يوحنا (الاب)

ابن الفارض

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01048657

892.78
I224YqA

